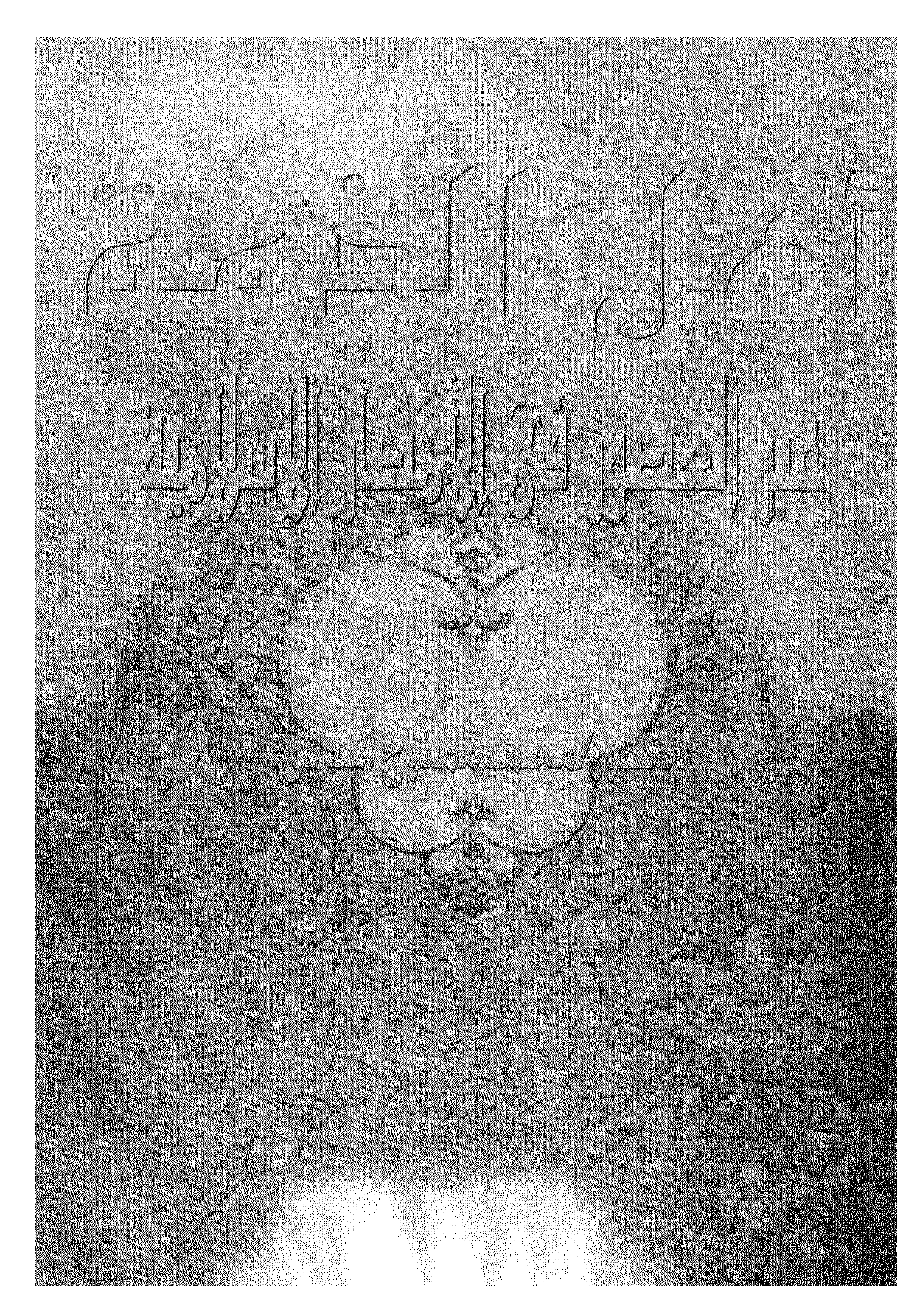
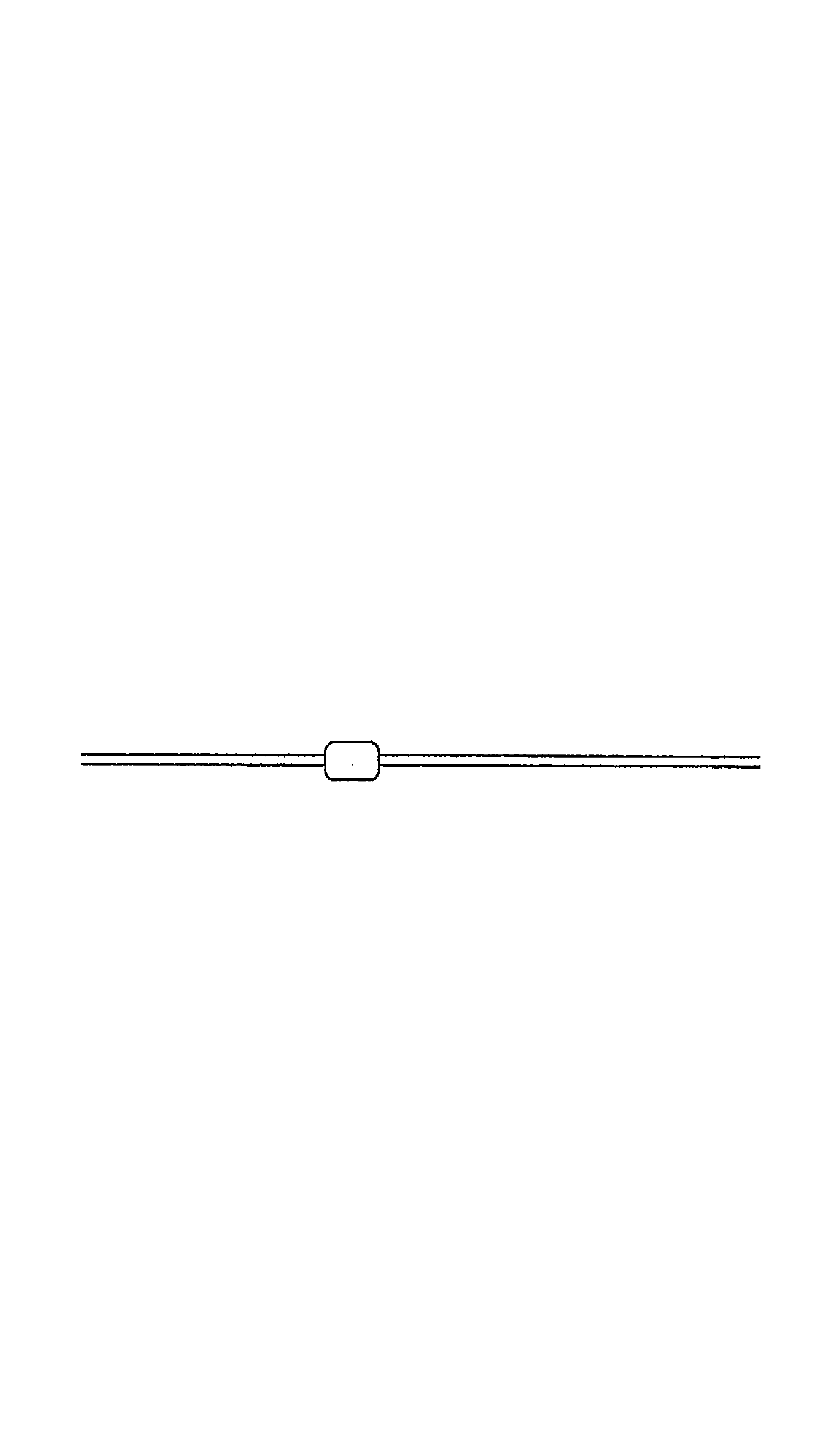

أهل الذمة
عبر العصور في الأوطان الإسلامية

أهــل الــذمة

عبر العصور في الأمصار الإسلامية

د. محمد ممدوح العربى



الإهـــداء

إلى أستاذ الأجيال فيلسوف الإسكندرية الدكتـــور محمد على أبو ريان رجل الفكر الموسوعى وصـــاحب المدرسة الفلسفية من المحيط إلى الخليج

أقدم هذا البحث تقديراً وإعزازاً لما قدمه من فكر يعبق الفكر بتراثه الخالد ،

د . محمد ممدوح العربى

محتويات البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

****

تصدير

" الحمد لله الذى هدانا إلى هذا، وما كنا لنهتدى لـــولا أن هدانا الله" والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعـــوث رحمـــة للعالمين، ومعه النور المبين الذى لا يأتيه الباطل بين يديـــه، ولا من خلفه، شرعة ومنهاجا للناس كافة، يهتدون به، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بين دفتى هذا الكتاب، بحث بعنوان: " أهل الذمة عـــبر العصور فى الأمصار الإسلامية"، فاز بجائزة الحج فى مســـابقة دينية من وزارة الأوقاف فى عام ١٩٨٩م، ونحمد الله على إتمام هذه المناسك فى عام ١٩٩٠م الموافق ١٤١٠هـــ.

وعلمت أن مصير هذه الأبحاث الفائزة طريقها إلى غيابة النسيان، لتقبع مع مثيلاتها فى الأعوام السابقة، وأعتقد أنـــه لـــو

نشرت فى مجلد يحمل عام المسابقة، أو تطبع فى كتيبات..فترى النور..وتأتى بثمارها المرجوة..وتعم الفائدة للجميع..

دفعنى هذا ما وجدته من إصدارات عديدة تناولت معظم هذه الأبحاث..ولا ضير فى ذلك..المهم أن الإدارة العامة للإرشاد الدينى بوزارة الأوقاف ألا يقتصر دورها على جوائز الحج والعمرة والمالية..بل ينبغى أن تتعداه إلى طبع هذه الأبحاث لتكون بمثابة الشق الإيجابى لهذه المسابقات..

قصارى القول، إننى كتبت هذا البحث – الذى نشرته اليوم بتوفيق من الله تعالى – فى وقت استعرت فيه الفتنة بسبب قلة منحرفة لا تمثل الإسلام والمسيحية فى شئ بل يقودها تعصب أعمى تغذيه أيادى خفية من الصهيونية العالميه وبعض الدول الأجنبية..ونحمد الله أن تم وأدها بفضل السياسات الحكيمة من دولتنا المحروسة والتى بورك شعبها من السيد المسيح عليه السلام، كما أخبرنا الأنجيل بذلك وأيضاً من دخلها كان سالما آمنا كما جاء فى القرآن الكريم، وكما أوصنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأهل مصر خيرا لأن له فيها نسبا وصهرا..فضلا عن قوله إن خير الجند أجناد مصر، فهم فى

تعصب أعمى تغذيه أيادى خفية من الصهيونية العالميه وبعض الدول الأجنبية..ونحمد الله أن تم وأدها بفضل السياسات الحكيمة من دولتنا المحروسة والتى بورك شعبها من السيد المسيح عليه السلام، كما أخبرنا الأنجيل بذلك وأيضا من دخلها كان سالما آمنا كما جاء فى القرآن الكريم، وكما أوصنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأهل مصر خيرا لأن له فيها نسبا وصهرا..فضلا عن قوله إن خير الجند أجناد مصر، فهم فى رباط إلى يوم الدين..، لنجد بعد ذلك فئة ضالة تأتى، يعميها الجهل والتعصب، بتصرفات غريبة على مجتمعنا المصرى.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فعند استقرائنا للتاريخ، نجد أن هذه الفتنة تظهر فجأة، وتخبو مرة أخرى، ففى عام ١٩١١ ظهرت هذه الأزمة، وكادت تودى وتهدم الكيان المصرى بسبب سياسة " فرق تسد" التى كان وراءها الاستعمار الانجليزى..ولكن رد كيده إلى نحره (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين)..، واليوم تطالعنا الولايات المتحدة بنظامها الجديد الذى يمثل ديكتاتورية العصر الحديث لتعلن فى نهاية القرن العشرين أنها حامية الأقليات، وراعية حقوق الإنسان فى العالم، ناسية حقوق مواطنيها من الهنود الحمر والزنوج

المقولات المنقولة من الفكر الأوربى ومنها فصل الدين عن الدولة حيث أن الدين معوق لمسيرة العلم والتقدم لسطوة وبطش رجال الكنيسة فى أوربا المسيحية، وتبنى هذه الفكرة الخاطئة البعض ممن يسيرون فى ركاب الغرب، رغم علمهم إن الإسلام دين العلم والمعرفة، ويدعو إلى قراءة كتاب الكون المفتوح لسبر أغواره، ليكتشفوا آيات الله ولينعموا بخيراته وآلائه..ومن ثم كانت كلمة " أقرأ " أول آية فى القرآن الكريم، مشعة بالتنوير الذى يبدد دياجير الظلام ودروب الجهل..ومما يدعو إلى الدهشة إن هذا البعض لا يزال يعيش فى ضلال هذه الأفكار الفاسدة، وكأنهم منظرين لها..وهى منقولة عن غيرنا.

إن الإسلام فى قمة تنظيمه السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى هو مجتمع مدنى، ينظم شرايينه مبادئ الشريعة الإسلامية، المنبثقة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، باعتبارها سياج الله المتين للفرد والجماعة..وإذا جازلى القول، أعتقد أن كل فرد بإرادته يمثل الدولة التى تتكون من مجموع إرادات هؤلاء الأفراد فى جميع مؤسساتها، المستمدة قوانينها كما قلنا من الشريعة الإسلامية المتطورة التى تتوافق مع كل زمان

ومكان من خلال الإجماع والقياس والاجتهاد فى حالة عدم وجود النص.

من هذا المنطلق، نجد الإسلام يمثـــل عقيـــدة ونظامـــا، وبالتالى يشكل البنية الأساسية للحياة الإسلامية بصورها المختلفة فى إطار الحرية والمساواة والعدالة، مقيدة بتعاليم السماء، والتى تواكبها السنة الشريفة مفسرة لها، مفصلة لها أيضا، بحـــــيث لا تجد أى تعارض بينهما، بل تجدهما متطابقتين مع فطرة الإنسان، وفكرة الحق، فكان النظام العام نظاما إنسانيا بالدرجـــة الأولـــى رغم أن مصدره إلهى، فيكون الإسلام ديناً ودولة، وهـــو بذلـــك تكون دولة إسلامية مختلفة تمامـــا عن الدولة الثيـــوقراطيــــــة – الدينية– بمفهومها الغربى الذى يتخذ الدين المسيحى للسيطرة والاستبـــداد على مقومات الشعب الأساسية، محاربـــا لمســـيرة التقدم العلمى. كما أن الدولة الإسلامية ليست أيضا كدولة المدينة عنـــد الأغريق التى تفرق بين مواطنيها من سادة وعبيـــــد، ولا هى كذلك الدولة القومية التى تقوم على العنصريـــة والاقليميـــة والقومية الضيقـــة، ولا هى كذلك الإمبراطورية المستبدة التى تريـــد التوسع على حساب الدول الأخرى، وانما هى، أى دولة الاسلام، كيان مستقل بذاته وحـــكومته مقيدة بالشريعة الإســـلامية التـــى

تدخل فى نسيج الفرد بإرادته، ومن مجموع هذه الإدارات للأفراد يتشكل المجتمع المدنى الإسلامى فى الدولة الاسلامية التى يتحقق فيها العدل الاجتماعى والمساواة والحرية السياسية والاقتصادية والدينية بين الجميع، لأن الإسلام جاء للناس كافة، ومن هنا ينتفى عن الدولة الإسلامية بأنها دولة دينية كما يدعى بعض الجهلاء، فهى دولة ذات نظام يعتنق المذهب الفردى والمذهب الاجتماعى فى عقد متميز ومتفرد، يجمعه الإسلام فى بوتقة واحدة، يرفض الإلحاد بكل صوره، وألوانه لأن الإسلام فى نظام حكمه يعلو كل النظم الوضعية التى يشوبها النقص الإنسانى.

وكما نعلم بأن الإسلام يكره سفك الدماء ويشجب الإرهاب ويمقت الإلحاد وينفر من الاستبداد ويرفض العنصرية والقبلية، لأنه دين عالمي يعمل على غرس الحب والأمان والسلام للجميع بعد كل هذا لماذا هذا العداء السافر للإسلام؟.

ولا يزال بعض أزرقية السياسة وأصحاب المراكز المشبوهة تعمل على ربط ما يحدث من مساوئ قلة منحرفة ضالة تسئ إلى الإسلام وقضيته، بأن تعطيهم الفرصة للنيل من الإسلام بجعله مردافا للإرهاب والقتل والتعصب والإسلام برئ

من هذه التهم الباطلة براءة الذئب من دم ابــن يعقــوب. وكــأن هؤلاء المنحرفين من الطرفين، يعمل كل منـــهم كــأداة لخدمـــة الآخر تحقيقا لتنفيذ المخطط الاستعمارى ضد الإسلام وليس أدل على ذلك ما يحدث للأقليات المسلمة فى الدول التى تدعى أنـــها حامية حقوق الإنسان والتى جاء، بها قبلهم، الإسلام من أربعـــة عشر قرنا.

اعتقد أن الدعوة التى بزغت إبان القرن التاســع عشــر بانشاء الجامعة الاســـلامية التــى اســتبدلت بفكــرة الجامعــة العربية..آن لها الآن أن تظهر وتتوحد لأننا نعيش فـــى عصـــر التكتلات الكبيرة، لأن الرابطة الاسلامية أقوى من كل قومية..

من خلال هذا العرض الوجيز يستلزم الاستشهاد ببعض مفكرينا الذين اعترفوا أخيرا بعد ثلاثين سنة بخطئهم فيما اعتنقوه من فكر غربى ويمثلهم خالد محمد خالد، والبعض الآخر لا يزال يردد نفس المقولات الخاطئة، واذكر منهم محمد سعيد عشماوى . بينما الفئة الثالثة، انحصرت فى فكر معين داعية له بكــل قــوة، وعندما تقرأ عن الإسلام تقف مبهورة أمام هذا الفكر الإسلامى، مشيدة بعظمته، ومنها لطفى الخولى الكاتب اليسارى المعروف.

يقول خالد محمد خالد – رحمه الله – وهو مفكر إسلامى عدل عن أفكاره اليسارية والمستوردة التى ظهرت فى كتابه من هنا نبدأ عام ١٩٥٢م، وقد تأثر بهذا الكتاب الكثير ثم يطالعنا فجأة بإصدار كتابه " الدولة الإسلامية " عام ١٩٨١م:

"....وكان خطئ بأننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الإسلامية..وأود، أولا، أن أشير إلى أن تسمية الحكومة الإسلامية بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ. فعبارة " الحكومة الدينية " لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا، وطال مكثه..وكان الدين المسيحى يستغل بأشع استغلال فى دعمه وفى إخضاع الناس، فالحكومة الدينية نهضت على سلطان دينى بينما كانت أغراضها سياسية، وأصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها، بينما الإسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية، ولاسيما في العصور الوسطى عصور الظلام " أ.هـ (انظر كتابى عن "الأخلاق والسياسة فى الفكر الإسلامى والليبرالى والماركسى"
(ط هيئة الكتاب عام ١٩٩٢، ص ١٥٨ وما بعدها).

وهنا يكفينا ما أكده خالد محمد خالد فى كتابه " الدولة الإسلامية "، إن الإسلام دين ودولة، ولا يمكن فصلهما عكس

رؤيته الأولى التى تأثرت بالفكر الغربى، التى دحضها بشجاعة وموضوعية عندما تبين له زيف ما اعتقده أولا، ومن ثم لم يتوان فى إعلان الحقيقة لأن الحق أبلج، معترفا بأن الإسلام دين ودولة وحق وقوة وثقافة وحضارة وعبادة وسياسة فهو نظام يجمع بين الدين والدنيا من أجل سعادة الإنسان ورفاهيته.

وأما النوع الثانى فهم الذين يخلعون على أنفسهم صفة المفكرين الإسلاميين، كأنهم منظرين للفكر السياسى فى الإسلام، فنجدهم يتحدثون عن " الإسلام السياسى "..ومنهم المستشار محمد سعيد عشماوى. اطال الله فى عمره فى كتابه " الإسلام السياسى " وهو مفهوم خاطئ كما نرى لمعنى الإسلام، حيث نجد لبسا وقع فيه المؤلف ومن يسير فى فلكه، حيث أن هذا المصطلح جعل الإسلام أجزاء وأطلق الجزء وهى " السياسى " على معنى كلى وهو " الإسلام " حيث أن الإسلام هو معزوفة مفرداتها السياسة والإجتماع والاقتصاد وما يتفرع منها من العلوم الإنسانية أو الطبيعية الأخرى فضلا عن عقيدته الإيمانية الثابته، وكلها تخرج من عباءة الإسلام. ونخشى أن يطالعنا من يكتب مستقبلا عن الإسلام السياحى، والإسلام النسائى، والإسلام الإرهابى والإسلام الحربى، والإسلام الاشتراكى، والإسلام

الرأسمالى، والإسلام الإقتصادى، والإسلام العقائدى، والإســـلام الاستعمارى وغيرها من المقولات الفاسدة والخاطئة لأن الإسلام يجمع بين دفتيه العقيدة والعبادات والمعـــاملات، وبذلــك نــرى مسائل العقيدة وما يتبعها أمور توقيفية لا أجتهاد فيها، بينا تـــرك الأمور الدنيوية محلا للنظر والبحث والاجتهاد باعتبارهــا مــن المسائل التوفيقية، وبالتالى لم يأت الإسلام بسياسة معينة وثابتـــة بل جاء بقضايا ومبادئ عامة تمثلـــت فـــى الشـــورى والبيعـــة والخلافة وغيرها، بل تركها جميعا لاجتهاد المفكرين ممـــا زاد إثراء الفكر الإسلامى فى جميع ينابيع الحياة، ليختـــاروا النظـــام السياسى الذى تقتضيه ظروف كل عصر ومتغيراته، ومن هـــذا تأكدت صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان فى أنظمته السياســـية والاقتصادية والاجتماعية. من هذا المنطلق يمكن القول بوجـــود نظريات إسلامية فى العلوم الانسانية جميعها، وبالتـــالى تنتفـــى مقولة ما يسمى " بالإسلام السياسى " وكذلـــك دعـــاوى تفتيـــت الإسلام إلى أجزاء تحت شعارات من التقدمية واليسارية والتجديد وكلها شعارات عارية من الحقيقة تماما، بل ما نقصده صوابا هو ما يمكن قوله: العقيدة فى الإسلام، أو العقيدة الإســـلامية وهـــى ثابتة، لا اجتهاد فيها، بينما يدرس عدا ذلك من الفروع كالحيـــاة

الاجتماعية والاقتصادية أو السياسية أو التنظيمات الإدارية، فكلها مجالات تدخل فى دائرة الفروع، كما قلنا، فتعرف بالحياة الاجتماعية الإسلامية أو المجتمع الإسلامى مسترشدا بالنهج القرآنى والنبوى من خلال النظريات الإسلامية مما يثرى الفكر الإسلامى فى جميع مناحى الحياة بفضل اجتهاد المسلمين، وبعض المستشرقين المنصفين للإسلام.

أردت التنويه حتى لا نتاجر بالإسلام بعناوين تجارية تفتقد إلى الموضوعية، لأن من يطلقون على أنفسهم بالمجددين والمحدثين، ما هم إلا دعاة اغتراب وتغريب وتغييب العقل المسلم [هذا ما كتبته بجريدة الأيام التى تصدرها آداب اسكندرية فى ١٩٨٨/١/١٧ فى حينه تحت عنوان " الإسلام السياسى] ".

أما الفئة الأخيرة وهى التى تسير بقوالب مصنوعة من الفكر الماركسى يعيشون فى أغلاله، ناسين أنه أصبح فكرا متحفيا رغم اتخاذه مسمى جديدا وهو قديم: اليسار المصرى، فرغم إطلاع أصحاب هذا الفكر المتحفى عليه بصورة تنم عن إلمامهم بحركة التاريخ من خلال منظور ضيق يعتنقوه..وهذا حقهم..ولكن من المؤسف هو عدم إطلاعهم على الفكر الإسلامى لتحدث المقارنة والموائمة إن وجدت..ولكنهم عندما يفاجئون

بحقيقة الأمر لا يتأخرون عن إعلانــها ومــن هــؤلاء المفكــر اليسارى المعروف لطفى الخولى رحمه الله - كتب عنه الدكتور محمد رضا محرم، الاستاذ بجامعة الأزهر فى صفحة الحـــوار القومى تحت عنوان: " طبت حيا وميتا" بجريدة الأهــرام عقــب وفاته مباشرة ما يــؤكد ما آرتناه، يقول الدكتـــور محــرم: " نشرت مقالة بعنوان: " خبرات العصر وتحقيق العدل الإسلامى " فى " مجلة الطليعة فى يناير ١٩٧٦م "، وبعــد النشــر التقيــت برئيس التحرير لطفى الخولى - رحمه الله - فبادرنى ســائلا: " صحيح كل ده فى الإسلام يارضا " فأجبته بنعم، ثم جاء تعليقـــه فى احترام وإعجاب: " أمال إحنا كنا بنعمل إيه طول عمرنا...."

ولعل قولة الحق التى أعلنها لطفى أمام الدكتور محــرم، تجعل بعض الكتاب يفيقون من سباتهم العميق ولا يتقولبوا فـــى قوالب صماء جامدة تزيفها شعارات براقة، بــأن يعــودوا إلـــى منابعهم الأصيلة مع إطلالاتهم على الثقافة والفــــكر كلــه دون انغلاق لتثمر اسهامتهم المعرفية فى دراسات مقارنة، فتعم الفائدة المرجوة مع الاحتفاظ بهويتنا باعتبار الكاتب صاحب قلم ثلاثـــى مصرى عروبى إسلامى ذى صبغة يسارية كما يقول الدكتــــور محرم، ولكنى أضيف إليــها..أو أى كـــاتب ينتمـــى إلـــى أيـــة

أيديولوجية يعتنقها وهذا من حقه دون فرضها على أحد من خلال حوار بناء يشجب الإرهاب الفكرى، وفى نفس الوقت يحافظ على هوية مصر العربية الإسلامية وتراثها الغنى عن طريق الأصالة والمعاصرة دون اغتراب وتغريب وتغييب للعقل العربى المسلم ،ليبقى تواصل الأجيال وتزاوج الحضارات بدلا من صراعها.

وهنا يحضرنى بعض المصطلحات الخادعة التى تنتشر بين ظهرانينا الذى يبثها بدهاء وخبث الإعلام الغربى المسيطر عليه اللوبى الصهيونى العالمى حتى يتحكم فى مصائر الأمم، ليحقق أرض الميعاد، هادفة إلى تكوين قوالب سابقة التجهيز للرفض والنفور من الرأى العالم العالمى تجاه المسلمين، بعد أن تم لهم تبثيت وغرس عقدة الذنب عند الألمان وهى فرية لا تستند إلى أى دليل، وقد فندها المفكر الفرنسى جارودى، كما نجح اللولبى الصهيونى العالمى المسيطر على مراكز إصدار القرار فى دول العالم الكبرى والصغرى تقريبا..كما انتهى الأمر إلى تفتيت الاتحاد السوفيتى والآن جاء الدور على المسلمين وليس ببعيد ما حدث بين العراق وإيران ثم العراق والكويت، وما يجرى فى السودان جنوبه وشماله، ومأساة المسلمين فى البلقان

وجرائم الصرب وما تدخل الناتو لمنع الأجرام الوحشى إلا ملهاة بلهاء توضح بقاء الصرب وإفنـــاء المسـلمين.... فـــى مأســاه مقصودة من الغرب.

وللأسف أن العلمانيين على اختلاف الوانهم فى مصـــر والبلاد الإسلامية ينفذون مخططاتهم من شعارات جوفاء تحمــل التقدمية واليسارية وغيرها لخداع عامة الناس..ومن المؤلم تبنى هؤلاء الفهم الخاطئ لهذه المسميات ويروجون لها لأنها مصـــدر أرزاقهم وشهرتهم الزائفة..ومن المؤسف حقـــا، أننـــا اصبحنـــا أســارى الفـــهم الخــــاطئ لــــهذه المصطلحـــــات، مثــــل الأصولية..والسلفية..و أعداء التنوير تستخدم فى غــير معناهــا الحقيقى خدمة للاستعمار وذيوع الاغتراب بيـــن ابنـــاء الأمـــة الإسلامية.

فالأصولية فى مفهومها الغربـــى هـــى حركـــة جمـــود ورجعية، تنظر إلى النصوص بحرفية وتعادى العلم والعقل، بينما فى الإسلام نجد " الأصولية " تعنى حركة الاجتـــهاد والتجديـــد، فهى عندنا شرف نتطلع إليها، وأصبحت الآن لعنة وسبة تلصقان بالتيار الإسلامي المستنير الذى تضره بعض الفــرق الضـــالة التى تسئ إلى الإسلام ومحسوبة عليه، والإسلام منها برئ.

وتعجب لهؤلاء الذين يحسبون أنفسهم من أهل الفكر وهم يضللون بزعمهم بأن السلفية هى الرجعية... بينما السلفية هـــى ماضى الإنسان يستلهمه ليعينه على مستقبله من خلال تواصـــل الأجيال عبر التاريخ الضارب فى أعماق الزمان والمكان.

أما "الإنسانية " فتنظر إلى الإسلام مكتفيا بذاته وليس فى حاجة إلى خالق يوجهه لأن مرجعه إنسانيته وذاته وهو مصطلح يخفى وراءه. عزل السماء عن الأرض.

بينما يعنى مصطلح " التنوير " إقامة قطعية معرفية مـــع الثـــقافة الموروثة وخاصة الدينية وهو ما حدث فى الغرب فـــى القرن السابع عشر بسبب موقف الكنيسة هناك ضد العالم. ومـــن يخالف هذا الرأى فهو متخلف... ويتناسون أنهم على مشــــارف القرن الواحد والعشرين ولا تزال أفكار القرون الماضية يعيشون ويرتزقون عليها... فأى تنوير هذا وغـــيره مـــن المصطلحـــات والشعارات التى التى يتشدقون بها كأنهم خشب مسندة.

ومن ثم، فعلى الأمة الإسلامية أن تحافظ على هويتـــــها الإسلامية التى تتميز باستقلاليتها، فالإسلام لا يعرف العنصريـــة ولا القبلية، ولا القومية، ولا التبعية، فهو دين جاء للكافة، واعتقد أنه جاء الوقت لدعاة الاغتراب والتغريب بالابتعاد عن تبعيتـــــهم

لمن يلقوننهم المفاهيم والمضامين الخادعة عن طريـــق الكلمـــة المكتوبة أو المسموعة أو المرئية..حتى لا تقع الأمة الإســـلامية تحت رحمة براثن الاستعمار أيا كان لونه..ونحمد الله علــــى أن حركة الإسلام المستنيرة التى يقودها علماء الأزهر والمثقفـــون من أبناء هذه الأمة، التى هى خير أمة أخرجت للناس يؤمـــرون بالمعروف، وينهون عن المنكر يقظة لما يحـــاك ضدهـــم مـــن مؤامرات.

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نعرض لكلمة " قبط " مـــن خلال ما كتبه سير إ. إيه. واليس Sir E. A. Wallis فى كتابه القيـم بعنوان: اللغة المصرية "The Egyptian Language" الذى صدر عام ١٩١٠م.

يقول سيرواليس: " إن البلدة اسمها قبط وليست قفط كما قال اليونانيون الذين استعار الأقباط حروفهم فـــى كتابـــة اللغـــة القبطية المأخوذة نصا ومعنى من الهيروغليفية....حتـــى الكلمـــة اليونانية لا تعنى المكان، ولكنها تعنى السكان " الأقباط " أ.هـــ.

ونعتقد أن كلمة " السكان " التى نقلها مسيحيو مصر، لا تـــعنيهم هم فقط، وإنما تعنى جميع سكان مصر من مصرييـــن قدماء يدينون بديانات وثنية متعددة ومختلفـــة، وعندمـــا دخلـــت

اليهودية مصر، تهود بعض المصريين، وبعدها جاءت المسيحية، فاعتنقها بعض المصريين الوثنيين واليهود..ومن ثم نجد أن كلمة "قبط " تعنى سكان مصر جميعا دون قصرها على جماعة معينة، وبالتالى عندما استقبلت مصر الإسلام اعتنقه الكثير من المصريين من مختلف الديانات دون قهر، فقامت الدولة الإسلامية فى مصر وأصبح سكانها معظم جميع المصريين مسلمين مع المسيحيين واليهود، يعيشون فى حب وسلام لأنهم أتوا من أرومة واحدة وبالتالى فكلهم أقباط بمعنى سكان مصر.

ويستطرد السيرواليس قائلا: " لماذا كتب الأقباط اللغة الخاصة باليونانية، وهى أصعب من اللغة المصرية التى تعودها الناس آلاف السنين، وإذا كانوا هم أصل مصر، فلا يمكن التخلى عن لغتهم بهذه السهولة، ولأنهم أصلا ليسوا مصريين، واستوطنوا مصر، قد هانت عليهم الحضارة المصرية والعلوم والآداب المصرية وسلموها لليونانيين لقمة سائغة، حرفوا وغيروا الأسماء فقط ونسبوها إلى أنفسهم بدورهم..وإذا كان الأقباط أصل المصريين وعلمائها ومفكريها، فكيف كانوا يعبدون الله ويؤمنون بعيسى عليه السلام ويسمون شهور السنة عندهم بأسماء آلهة وثنية وأصنام..أليست هذه مغالطة أخرى" أ.هـ.

ثم يقرر سيرواليس حقيقة أخرى وهى: " إن نطق اللغة القبطية هو نصا ومعنى للغة الهيراطيقية والديموطيقية والهيروغليفية ولكن كتبت بحروف يونانية مشتقة أساسا من اللغة الهيروغليفية ثم أدخلت حروف الجر عليها وهذبوا الحروف، ومن ثم لم يبتدع الأقباط معانى أو كلمات جديدة..وليس أدل على ذلك من سهولة ترجمة حجر رشيد، فقد أدرك شامبليون أن اللغة القبطية ماهى إلا اللغة الهيروغليفية وان اختلف شكل الحروف، فسهل عليه الترجمة لأنهم قبل ذلك أوهموا الكثيرين أنها لغة خاصة بهم". أ.هـ.

هذا البحث القيم الذى قدمه السيرواليس عن اللغة المصرية، ومن خلاله عرج إلى كلمة أقباط التى تعنى السكان..فقد قال به رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكما نعلم أن القرآن الكريم قال عنه: " وما ينطق عن الهوى"..

فقد بعث نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم برسالة إلى المقوقس الحاكم الرومانى لمصر مخاطبا أياه " زعيم قبط مصر " وهى تعنى سكان مصر من وثنيين ويهود ومسيحيين وغيرهم ممن يقطنون مصر..ومما لا شك فيه أن رسالة النبى للمقوقس لم تقتصر على مسيحيين مصر بل جميع سكان مصر.

فالقبطى كما تشير إليه الدراسات أنها حرفت وانها جاءت من كلمة قفط، وانما يخصنا فى نهاية الأمر أن كلمـــة القبطـــى تعنى الانتساب إلى مصر..أى المصرى وقد جاء فـــى المعجـــم الوسيط عن كلمة القبط إنها تعنى سكان مصر وهى كلمة يونانية الأصل.

من هذا المنطلق نجد أن كلمة الأقباط تعنى سكان مصر جميعهم، وبالتالى فانا قبطى مسلم وهذا قبطى مسيحى، وهذا هو المفهوم الصحيح لهذه الكلمة، حتى نمنع الذين يرتزقون من إثارة الفتن، ولا نـــسمح لهم ترديد شعارات الوحـــدة الوطنيـــة كـــأن مصرنا ممزقة الأشلاء، ونشجب تدخل الدول الكبرى بـــحجة حماية الأقلية من الأكثرية وهذا بهتان وزور لأن شعب مصـــر شعب واحد يمقت العنصرية من خلال مصر الإســـلامية التـــى عمقت مفهوم المواطنة بان مصر للمصريين، ولا إكراه فى الدين قد تبين الغى من الرشد. وليس أدل على ذلك ماتراه فى الشارع المصرى من محبة وتعاون بين الجميع.

وكلمة أخيرة أرجو من الله العلى القدير أن تجد صـــدى لدى القيادة السياسية الحكيمة وهى العودة إلـــى انتخـــاب شيـــخ الأزهر وأعضاء هيئة كبار العلماء بدلا من التعيين أســـوة بمـــا

يحدث عند انتخاب نيافة البطريرك والتصديق عليه من القيادة السياسية الرشيدة.

ولا يخفى على أحد دور علماء الأزهر الشريف فى صد الهجمات التترية سواء كانت فكرية أو استعمارية عبر تاريخنا العظيم..ونأمل أن يأخذ الأزهر الشريف مكانته العظيمة قبل أن ينفرط عقده. بسبب ما يحاك ضده من العلمانيين والمراكز المشبوهة ومن يسير فى ركابهم لهدم هذا الصرح الكبير لأنه يعتبر المرجعية الدينية التى على وعى صحيح بقضايا الإسلام ومشكلات المسلمين المعاصرة، والسد المنيع لوقف التيارات الاسلامية المنحرفة التى تسئ إلى الإسلام وتخدم قوى الاستعمار والصهيونية العالمية.

والآن أقدم هذا البحث عن " أهل الذمة عبر العصور فى الأمصار الاسلامية.

سائلا الله العلى القدير التوفيق والخير للجميع.

د. محمد ممدوح العربى

***

بسم الله الرحمن الرحيم

أهل الذمة عبر العصور فى الأمصار الإسلامية

مقدمة البحث

أحمدك ربى وأستغفرك وأتوب إليك، وأستهديك، وأصلى على نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم....وبعد....

فنحمد الله دوما على أن الهمم الإسلامية لم تفتر، ولم تستكن رغم الكبوات التى تحل أحيانا بالأمة الإسلامية، فنجدها تعمل جاهدة على صد التيارات المعادية التى تريد النيل من الإسلام بإثارة بعض الدعاوى الباطلة والواهية ضده، ولكن بفضل حركة الإصلاح الإسلامية المستنيرة والمسترشدة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، تجعل سهام أعداء الإسلام ترتد الى نحورهم لأن كلمة الله هى العليا.

ومن المفيد أن نعيد للأذهان ما حدث للدولة العثمانية من حملات تشهيرية، قصد بها تقويض الخلافة الإسلامية وتفتيتها إلى دويلات وكيانات صغيره يسهل الانقضاض عليها من الاستعمار والصهيونية العالمية وقد تحقق للاستعمار الصليبى الجديد عن طريق الغزو الفكرى تفتيت أوصال الأمة العربية

والإسلامية، لما استقرت بعض المفاهيم الخاطئـــة عـــن الدولـــة العثمـــانية ساعد على ذيوعها للأسف بعض العرب من المسلمين والمسيحيين مما جعلها تستقر فى وجدان الأمة الإسلامية ومنــــها تسميتها " بالرجل المريض " وقام جمال الدين الافغـــانى ينـــادى بالجامعة الاسلامية – التى احتضنتها الدولة العثمانية فى القـــرن التاســـع عشر – التى تدعو إلــــى وحـــدة الصـــف الإســـلامى وتخليصه من براثن السيطرة الأجنبية المســـيحية التـــى نـــهبت ثرواته، وقضت على وحدته، ومع ملاحظة أن حركة الجامعـــة الإسلامية أعم واشمـــل من حركة القومية العربية التى نادى بها بعض القوميين المسيحيين فى بلاد الشام الذين كانوا يسيرون فى ركاب الغرب. والحمد لله أن هناك بعض القادة العرب المخلصين المتمسكين بالقومية العربية على تأكيد وحدتها من المحيط االـــى الخليج لأنها المنطلق الحقيقى للوحدة الإسلامية الكبرى فيما بعد.

قصارى القول أن الاستعمار الفكرى الجديد لن يهدأ الا بإثارة الفتن والعمل على إيجاد القلاقل فى الـــدول الإســـلامية، خشية إنبعاثها من جديد قوية وموحدة تعيد مجد المسلمين الأوائل مســـتفيدة من منجزات العصر لتلحق بركب الحضارة المعاصرة المادية فى ظل الإطار الإسلامى الذى يدعو الى الأخذ بالأسباب لتنصبح أمة محمد أمة قوية فى قوتها المادية وقوتـــها الروحيـــة

معا. ومن ثم فإن الاستعمار يعمل دائما على إعاقة مسيرة الأمة الإسلامية بشتى الوسائل لإضعافها من خلال إثارة الفتن وبث الفرقة بينها فضلا عن إثارة مشكلة الأقليات فى الدول الإسلامية، وكما نعلم أن هذه المشكلة لا توجد إلا فى مخيلة المستعمر الذى يروج لها إعلاميا ناسيا مشكلة الأقليات المسلمة فى بلاده وللأسف يشاركه فى الصمت جهاز الإعلام العربى والإسلامى الذى يعتبر بحق مقصرا فى حق الأقليات المسلمة فى البلاد المسيحية، والتى تعانى صنوف العذاب بينما الأقليات المسيحية تنعم بالحياة الآمنة. وتتمتع بحرية عقيدتها التى كلفها الإسلام لهم تأكيدا لقول الله تعالى:

" **لا اكراه فى الدين** "[1] .

من هذه العجالة يكون مدخلنا إلى بحثنا الذى يؤكد مبادئ الإسلام التى اتسمت بالسمو والسماحة والآخاء فى علاقة السلمين بغيرهم بما يضمن حسن معاملتهم وحماية معابدهم، وعصمة أنفسهم وأموالهم من خلال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده عبر العصور والأمصار الإسلامية.

---

[1] سورة البقرة : الآية ٢٥٦

موقف الإسلام من (الحرب - الجزية - أهل الذمة)

يفرض علينا البحث بداية أن نعرض لموقف الإسلام من الحرب والجزية وأهل الذمة من خلال النبعين الصافيين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بصورة مجملة إبان دولة الرسول فى المدنية - باعتبارهما النبراس الذى اهتدى بـــه مـــن بعـــده المسلمـــون، وفى نفـــس الوقـــت يكـــون ردا عمليـــا لدحـــض الأفتراءات الصليبية الجديدة ضد الإسلام.

١- الحـــــرب:

الحرب مشروعة فى الإسلام باعتبارها دفاعيـــة، لأنـــها تقوم على رد الاعتداء الذى وقع علـــى المســـلمين أو المتوقـــع حدوثه من قبل الأعداء. إذن الإسلام يحرم الحرب الهجومية التى تدمر كل شئ. يقول الله تعالى: " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"[١]، " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقـــاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين"[٢].

---

[١] سورة البقرة الآية ١٩٤.

[٢] سورة البقرة الآية ١٩٠.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لاتقتلوا شيخا فانيا ولا صغيرا ولا أمرأة [1] ، " لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع"[2].

أما ابن خلدون فيقول: "ان الحرب المشروعة نوعان: إما الى غضب لله ودينه وهو المسمى بالجهاد فى سبيل الله، واما غضب للملك نتيجة حروب الدول الخارجين عليها والمانعين لطاعتها" [3].

إذن الحرب فى الإسلام مشروعة للدفاع عن الدين الإسلامي، وتمكينه من الإنتشار وترسيخ قواعد الدولة الإسلامية التى ان خضعت او استكانت أمام ضربات الأعداء، كان ذلك قضاء مبرما على الدعوة الإسلامية، ووأدا لها فى مهدها. ومن ثم كانت حروب دولة المدينة حروبا دفاعية لأن قريش واليهود والروم والفرس هم الذين ابتدأوا الحرب ضدها بحيث يكون الدفاع على قدر ما حصل من الاعتداء دون التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان.

---

[1] البخارى ومسلم.

[2] البخارى ومسلم

[3] ابن خلدون: المقدمة ص ٢٢٦.

كما يحرم الإسلام المفاجأة فى الحرب دون إعلان كقوله تعالى: " وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين"[١] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من كان بينه وبين قوم عهد فليشد عقدته ولا يحلها حتى ينقضى أمرها وأن ينبذ إليهم على سواء" [٢] .

وكان يتمثل قانون الحرب فى أمور ثلاثة يذكرها النبى صلى الله عليه وسلم: " اذا لقيت عدوك فادعه الى خصال ثلاث: أدعهم إلى الإسلام فيكون منا، وان أبوا إلا البقاء على دينهم وسلطانهم فأسألهم الجزية، فان رضوا ذمة الله وذمة دينه كف عن قتالهم، وان أبوا الجزية فاستعن بالله وقاتلهم[٣] .

وأوصى الإسلام بالسفراء فيقول المصطفى صلى الله عليه وسلم" أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما"[٤]. كما يقرر معاملة الأسرى معاملة طيبة فيقول الله تعالى. " ويطعمون الطعام على وجه مسكينا ويتيما وأسيرا" [٥] . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك" استوصوا بالأسارى خيرا" [٦] . وهكذا نرى الاسلام قد سبق القانون الدولى وغيره

---

[١] سورة الأنفال الآية ٥٨. .

[٢] أبو داود.

[٣] البخارى ومسلم.

[٤] البخارى واحمد.

[٥] سورة الانسان الآية ٨.

[٦] البخارى.

من القوانين الوضعية منذ خمسة عشر قرنا، مقررا الحفاظ على حياة الأسير والسفراء ورعايتهم رعاية حسنة تكفل لهم المعيشة الحسنة والطبيعية [١] ولم يكتف الإسلام بذلك فتعداه الى حق الأجارة وهو ما يعرف باللجوء السياسى بلغة العصر - فيقول الله تعالى: "وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون"[٢] . أما الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: " أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت أم هانى" [٣] .

أما الحرب بين المسلمين فهى ممنوعة عملا بقول الله تعالى: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون"[٤] .

وفى هذا الاتجاه يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: " اذا لقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار" [٥] .

---

[١] على منصور: شريعة الله وشريعة الانسان ص ٦٣.

[٢] سورة التوبة: الآية ٦.

[٣] ابو داود.

[٤] سورة الحجرات الآيتان: ٩ - ١٠.

[٥] البخارى.

أيضا نجد الإسلام يدعو إلى السلام كقوله تعالى: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم"[1]، " يا ايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة [2]، " ويقـــول النبـــى صلى الله عليه وسلم"....ألا أدلكم على شئ اذا فعلتموه تحـــاببتم؟ افشوا السلام بينكم" [3] .

من هذا المنطلق القرآنى والنبع النبوى الصافيين، نجد أن الأصل فى الدعوة الإسلامية هى الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة عن طريق اقتناع ذوى الألباب والعقول وليس عن طريق السيف لإجبارهم على دخول الإسلام كما يزعم أعداؤه.

٢- الجـــزيـــــة :

هى ما تؤخذ من أهل الذمة ويقول ابن القيم[4] : " هـــى مبلغ من المال توضع على الروءس وتسقط بالإسلام بمعنى أنها وضعت على الذميين فقط، ويقول الله تعالى: " قـــاتلوا الذيـــن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون بدين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[5] .

---

[1] سورة الانفال: الآية ٦١.

[2] سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

[3] البخارى.

[4] ابن القيم: أهل الذمة ص ٢٢.

[5] سورة التوبة: الاية ٢٩.

وقد سبق أن أشرنا إلى قانون الحرب الإسلامية الذى فرض الجزية على الذين لم يدخلوا الدين الجديد فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم اذا لقيت عدوك فادعه الى خصال ثلاث منها: إن أبوا إلا البقاء على دينهم وسلطانهم فاسألهم الجزية، فإن رضوا ذمة الله وذمة دينه كف عن قتالهم.."[1] .

وهذه الجزية إنما هى ضريبة عادلة فرضتها الشريعة الإسلامية السمحاء على أهل الذمة لتمتعهم بكثير من الحقوق، ومن ثم فلا بد لهم من المساهمة ولو بجزء يسير من المال عرف بالجزية بالنسبة لهم مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون - ولذا كان على أهل الذمة أن يؤدوا هذه الجزية لإعفائهم من الزكاة، ولأنهم أيضا كانوا معافين من أداء الخدمة العسكرية، ومتمتعين بحماية المسلمين وتسامحهم، ولهم حق ممارسة شعائرهم الدينية وشغل الوظائف والأعمال بحرية[2] . واختلف مقدار الجزية باختلاف الزمان والمكان، فلم يكن لها المقدار الثابت أو المحدد وانما يتحدد هذا المقدار وفقا لما تقرره - معاهدات الصلح بين المسلمين وأهل الذمة. فكانت تحدد الجزية نتيجة دخل الفرد من أهل الذمة حسب عمله أيام النبى صلى الله عليه وسلم وخليفته الصديق رضى الله عنه.

---

[1] البخارى ومسلم: انظر الحديث كاملا ص ٣٠

[2] د. على حسنى الخربوطلى: الاسلام واهل الذمة ص ٦٧ - ٦٨.

ولما استقر المسلمون فى الأمصار التـــى دخلـــت فـــى الإسلام، وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظامـــا ثابتـــا موحدا للجزية يتبعه عمال الأمصار تحقيقا للعدالة، ومنعا للظلـــم على أهل الذمة، فقد جعل عمر الجزية على القادرين من الرجال فقط[1] ":-

١- ثمانية وأربعون درهما على الموسر ويمثله صاحب الحرفة المربحة مثل الطبيب والصيرفى والتاجر، وصاحب الضيعة.

٢- أربعة وعشرون درهما على متوسط الحال ويمثله من هـــم أقل كسبا من الموسر.

٣- اثنا عشر درهما على الفقير فـــهو العـــامل بيـــده كالخيـــاط والصباغ والاسكافى ومن فى مثلهم.

وتجمع الجزية مرة واحدة كل سنة هلالية، وتدفع نقدا أو عينا، وكان يعفى منها كبار السن والضعفاء والنساء والأطفـــال والرهبان فى الأديرة وأهل الصوامع قصارى القول أن الجزية لا تجبى إلا من الذكور القادرين على العمل والكسب، ومن ينخرط منهم فى جيش المسلمين تسقط عنه الجزية.

مما عرض ينتفى معـــه مقولـــة العـــامل الإقتصـــادى والتوسعى نتيجة فرض الجزية عند الفتح الإسلامى.

---

[1] أبو يوسف: الخراج ص ٦٩، ٧٠.

٣- أهــل الذمـــــة :

الذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الإسلام من غير المسلمين من أهل الكتاب، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية، فأمنوا علـــى أرواحــهم وأعراضهم وأموالهم، ومن ثـم اصبحـوا فـى ذمـة وحمايـة المسلمين[١] . وصار لهم ما للمسلمين من حقوق سواء بســواء، فى كل الوظائف والأعمال فى الدولة دون المنــاصب الكــبرى الرئيسية، وأيضا تمتعوا بالحريـــة الدينيـــة تمامـــا. وأصبحــت معاملتهم فى الشئون الأقتصادية مثل معاملة المسلمين أنفسهم، بل شغل أهل الذمة منصب الوزارة واحتلوا بعض المراكز الوظيفية الهامة فى العصور الإسلامية المختلفة وهذا ما سنوضحه عنـــد تناولنا لأهل الذمة فى الأمصار عبر العصور.

والله تعالى يقول فى كتابه العزيز: " لا تجـــادلوا أهــل الكتاب إلا بالتى هى أحسن"[٢] ، " لا ينهاكم الله عن الذيـــن لــم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"[٣] ، " لا اكراه فى الدين قــد تبيــن

---

[١] د. على حسنى الخربوطلى: الاسلام واهل الذمة ص ٦٥.

[٢] سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

[٣] سورة الممتحنة: الآية ٨.

الرشد من الغى"[١] " ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" [٢] .

وسبق لنا أن بينا حق الاجارة فى قوله تعالى: " وان أحد من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون[٣]. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك " أجدرنا من أجرت وأمنا من أمنت أم هانى[٤].

لقد اهتم الإسلام بالذمى اهتماما بالغا حتى نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى أكثر من حديث: " من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة، وفى رواية ثانية يقول الهادى البشير صلوات الله عليه: " ألا من ظلم معاهدا أو ينقصه حقه فأنا خصمه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة" [٥]. كما يؤكد النبى صلى الله عليه وسلم على أن دم الذمى تتكافأ مع دماء المؤمنين لأنه لاذ بهم فيقول: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم على يد على من سواهم" [٦] .

---

[١] سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

[٢] سورة يونس: الآية ٩٩.

[٣] سورة التوبة: الآية ٦.

[٤] ابو داود.

[٥] كشف الخفاء للعجلونى: جـ٢٢ ص٢١٨. راجع هذا الحديث برواياته المختلفة.

[٦] النسائى.

كما نرى أن المعاهدات التى أبرمها الرسول صلـــى الله عليه وسلم مع اليهود والنصارى تؤكد هذا المعنى، وســنتعرض لبعضها فى العصر النبوى.

لذلك نجد الإسلام ينشد العدالة لجميع مواطنيه مســلمين وغير مسلمين فى جو يسوده الحب والأمان، وبذلك نجد فكــرة المواطنة قد حلت مشكلة الأقلية التى يمثلها الذميــون فــى دار الإسلام بطريقة تتسم بالعدل والكرم والتسامح بين من يؤمنــون فيلزمهم التقيد بنظامه وبمبادئه، ويلقى عليهم التبعة فــى تسـيير أمور الدولة، وبين من لا يؤمنون ولا يسلمون بــهذه المبــادئ، فيلزمهم اتباعها فى حدود الانصياع لها للمحافظة علــى نظــام البلاد الإسلامى بما يضمن لهم المحافظة على حقوقهم المدنيـــة والدينية والإنسانية بعد إعفائهم من تبعة تسيير نظام الدولة.

هكذا جاء الإسلام ومعه حل مشكلة الأقلية فــى نظامــه المتفرد فى إطار العــدل والتســامح، عجــزت أمامــه الــدول المتحضــرة بايديولوجياتها الوضعية والعلمانية المختلفـــة فــى إيجاد حل لمثل هذه الأقليات سوى إبادتها أو نبذها ولا يغيب عن أذهاننـــا دوما ما يحدث للأقلية المسلمة فى البلاد المســيحية أو فى الدول الملحدة.

* * *

أهل الذمة فى العصر النبوى (١/١١هـ -٦١٢/٦٣٢م)

لقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم مطبقا للتعاليم القرآنية ولهديه النبوى قولا وعملا، فأسس دولة المدينة الإسلامية الأولى[1] وقد رأينا مما عرضناه بالنسبة للحرب والجزية وأهل الذمة من خلال النبعين الصافيين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

لذا نقدم بعض التطبيقات العملية فى معاملته مع أهل الذمة متمثله فى معاهدته الأولى المعروفة باسم الصحيفة، والمعاهدة الثانية وهى معاهدة نصارى نجران، وأخيرا سلوكه مع أهل الكتاب الذين كانوا يسيئون إليه صلى الله عليه وسلم.

١- معاهدة المسلمين مع غير المسلمين:

وهى أول معاهدة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين اليهود وقد عرفت هذه المعاهدة باسم " الصحيفة"[2] ، وقد تضمنت تأكيد حرية المدينة، وأن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة، وبذلك انتفت العصبية القبلية والعنصرية، كما نصت أيضا على تنظيم مبدأ القصاص والعقاب بتفويض الجماعة فى حق التأديب بدلا من الفرد، وبذلك قضت على الحروب الداخلية والاضطرابات، كما شملت نصوصها

---

[1] د. محمد ممدوح العربى : "دولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة" ص ١٤٩ وما بعدها طبعة هيئة الكتاب، عام ٩٨٨.

[2] د. محمد حميد الله الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، ص ١١١، ص ١١٢.

أيضا على التضـامن والتعاون بين الجماعة الإسـلامية ومـع حلفائهم من اليهود، كما أبقت على الأعراف الحميـدة وأقـرت حرية العبادة للجميع من أهل الكتاب. ومن ثم يتبين أهمية هـذه الصحيفة من الناحيتين الإجتماعيـة والسياسـية، فقـد حـددت العلاقات بين أفراد المجتمع الجديد من مسلمين وغـيرهم مـن اليهود، وبذلك تعتبر بحق أول دستور للمدينة وضعـه الرسـول صلى الله عليه وسلم.

٢- معاهدة نصارى نجران:

وهذه المعاهدة أبرمها الرسول الكريم صلـى الله عليـه وسلم مع نصارى نجران[١] ونقتطف منها: "..ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالـهم وأنفسـهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهـب مـن رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومـن نـال منهم فبينهم النصف حقا[٢] غير ظالمين أو مظلومين..ولا يؤخـذ رجل منهم بظلم آخر".

هذه المعاهدة تبين لنا عدم إجبار أحد فى دخول الإسلام بل يمكنه العيش فى أمان وطمأنينة فى دولة الإسلام مع إعطائهم

---

[١] المصدر السابق: ص ١٢، ص ٢١ وايضا: ابن هشام: السيرة.

[٢] بمعنى انصافهم

الحرية الدينية وترك رجال الدين المسيحى فى مواقعهم، والعمل على احترام ملكية وحقوق الذمى والحفاظ عليها والعمـل علـى إنصافه. وهذه المعاهدة تعتبر ارهاصة لكيفية التعامل مع الذميين فى الدول التى يدخها الإسلام فيما بعد.

٣- كيفية التعامل النبوى مع بعض التصرفات الخاطئة مع أهل الكتاب :

حقا أن النبى صلى الله عليه وسلم، خلقه كـان القـرآن، ولنا فيه أسوة حسنة، كما علمنا أن القدوة لا تعلم وإنما بالسـلوك لأن قوله يماثل فعله صلى الله عليه وسلم.

ونكتفى بسرد حادثتين فقط من حياة الرسول صلـى الله عليه وسلم لتدل على حكمته وحلمه مع أهل الذمة.

" كان النبى صلى الله عليه وسلم يجاور سكنه أحد اليهود الذى دأب على إيذاء النبى بصفة مستمرة بإلقاء القاذورات فـى طريقه، ثم امتنع عن فعلته الشنعاء، فلما سأل النبى عن اليهودى فعلم أنه مريض، فقام وزاره فى بيته متمنيا له الشفاء، وانتـهت هذه الحادثة بإسلام اليهودى.

أما الحادثة الثانية، فقد جاء أحد اليـهود مطالبـا النبـى بسداد الدين بصورة نابية، فما كان من أحد الصحابة الا أن قـام وعنف اليهودى ونهره..ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يقـول لصاحبه: دعه وأعنه ليأخذ دينه إن كان له الحق فى ذلك..فيعتذر اليهودى على إدعائه كذبا على رسول الله ثم أسلم.

هذه ملامح يسيرة ومضيئة فى كيفية التعامل مع اهل الذمة سواء عن طريق التعامل اليومى أو من خلال المعاهدات معهم.

***

أهل الذمة فى عصرالخلفاء الراشدين (١١/٤٠هـ - ٦٣٢/٦٦١م):

لقد سار الخلفاء الراشدون على المنهج الإسلامى الذى رسمه القرآن الكريم والهدى النبوى فى معاملتهم مع أهل الذمة.

١- **الخليفة أبو بكر الصديق** : فقد خطب الصديق فى الجيوش الى الشام قائلا " لا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا أمرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وماقرغوا أنفسهم، سوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فاذا أكلتم منها شيئا فاذكروا اسم الله [١]. كما يقول الصديق رضى الله عنه: " لا تقتلن أحدا من أهل ذمة الله، فيطلبك الله بذمته، فيكبك على وجهك فى النار"[٢].

---

[١] ابن هشام: جـ٣ ص ٢٦٥.

[٢] ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٣ ص ١٢٧.

٢- **الخليفة عمر بن الخطاب** : لقد كان الفاروق أول من وضع نظاما موحدا للجزية فى جميع الأمصار حتى لا يظلم الذمى فى دفعه للجزية، فقد حددها حسب قدر كل واحد من أهل الذمة، وقد أشرنا إلى هذا النظام فى حينه. كما يذكر لنا التاريخ عندما مـــر عمر بن الخطاب على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام، فقال: " ما شأن هؤلاء؟ فقيل له " انهم اقيموا فى الجزيـــة" فكره عمر ذلك وقال: " هم وما يقتدرون به " قـــالوا: " يقولـــون لانجد" قال: فدعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون" ثم أمر بهم فخلى سبيلهم"[١].

ويروى أيضا أثناء مرور الفاروق بباب قوم وعليه سائل يسأل وكان شيخا ضريرا فقال له: " من أى أهل الكتاب أنـــت؟ فقال: " يهودى " قال عمر: فما ألجأك الى ما أرى؟ قال: أســـأل الجزية والحاجة والسن" فأخذ عمر بيده وذهب به إلـــى منزلـــه وأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيـــت المـــال وقـــال له..انظر هذا وضرباءه، فو الله ما أنصفنا إن أكلنا شبيبتـــه ثـــم نخـــذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقـــراء هم الفقراء المسلمون والمساكين هم أهـــل الكتـــاب وهـــذا مـــن المساكين ثم وضع عنه الجزية[٢].

---

[١] ابو يوسف: الخراج ص ٧١.

[٢] المصدر السابق، ص ٧١.

الشام، فقال: " ما شأن هؤلاء؟ فقيل له " انهم اقيموا فى الجزيـــة" فكره عمر ذلك وقال: " هم وما يقتدرون به " قـــالوا: " يقولـــون لانجد" قال: فدعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون" ثم أمر بهم فخلى سبيلهم"[1].

ويروى أيضا أثناء مرور الفاروق بباب قوم وعليه سائل يسأل وكان شيخا ضريرا فقال له: " من أى أهل الكتاب أنـــت؟ فقال: " يهودى " قال عمر: فما ألجأك الى ما أرى؟ قال: أســأل الجزية والحاجة والسن" فأخذ عمر بيده وذهب به إلـــى منزلـــه وأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيـــت المـــال وقـــال له..انظر هذا وضرباءه، فو الله ما أنصفنا إن أكلنا شبيبتـــه ثـــم نخـــذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقـــراء هم الفقراء المسلمون والمساكين هم أهـــل الكتـــاب وهـــذا مـــن المساكين ثم وضع عنه الجزية[2].

كما أوصى عمر عند دنو أجله بأهل الذمة خيرا فقال: " أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خـــيرا، وان يوفـــى لـــهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وإلا يكلفهم فوق طاقتهم"[3].

٣- **الخليفة عثمان بن عفان:** سار على منوال من سبقوه، فتمتع أهل الذمة فى أيامه بما تمتعوا به أيام الصديق وعمر رضى الله

---

(١) ابو يوسف: الخراج ص ٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـــ ، ص١٧٨.

الذى أنصف اليهودى الذى جاء شاكيا من على، ممـــا أدى إلـــى إسلام اليهودى وقتاله فى صفوف على كرم الله وجهه[1] .

أهل الذمة فى العصر الأموى (٤٠/ ١٣٢هـــ ٦٦١/ ٧٥م).

اتسم العصر الأموى بالتسامح أيضا بل بدأ عهد جديـــــد من التسامح مع أهل الذمة يتضح من خـــلال تعـــامل الأمويــين معهم.

١- **معاوية بن ابى سفيان:** لقد كان معاوية متسامحا للغاية، وقد عهد إلى أحد المسيحيين تربية ورعاية ابنه يزيد. ويذكر معاوية حين تولى الخلافة بالشام عام ٤٠هـــ صلى عند جبل الجلجلـــة المقدس، كما كان يستقبل رجال الدين المسيحى ويكرمهم شأنـــهم شأن المسلمين تماما.

٢- **عبد الملك بن مروان:** لقد أخذ أهل الذمة مكانتهم فى عهده حتى أن الاخطل الشاعر المسيحى عند دخوله المساجد فى دمشق والكوفة، يقف له المسلمون إجلالا وإبان خلافتـــه قـــام ســـمير اليهودى بضرب الدراهم وسميت باسمه الدراهم الســـميرية[2] ، فضلا عن أن كاتب عبد الملك بن مروان هـــو ابـــن ســـرجيون

(١) الاصفهانى: جـــ١٦ ص ٣٦.

(٢) المقريزى: كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٣٥.

المسيحى[٢] ، كما عهد عبد الملك الى مسيحى آخر بتعليم أخيه الصغير عبد العزيز.

٣- **سليمان بن عبد الملك:** ذكر ترتون أن سليمان بن عبد الملك اتخاذ كاتبا نصرانيا يسمى: " البطريق بن النقا" واستعمله ناظرا على مبانيه فى الرملة فى فسلطين، وعلى مراقبة القنوات والآبار والمسجد القائم بها[١].

ولقد حدث أثناء تولى سليمان بن عبد الملك فى مدينة اللد، كان يوجد بستان ملاصق للكنيسة ملكا لقسيس فأبلغ برغبة الحاكم فى شراء البستان فطلب القسيس إحضار القاضى والشهود، فلما حضروا سألهم القسيس: الستم تعلمون أن هذا البستان لى وملك يدى، فقالوا: " نعم "فقال: " إذن فاشهدوا الآن قد حبسته علي الكنيسة حبسا تاما لا رجعة فيه، فاسقط فى أيديهم، وثار الحاكم بايعاز من بعض معاونيه، وحاول قتل القس..ولكن الشيخ رجاء بن حياة أحد معاونيه المخلصين منعه، فانصاع إلى الأمر وتقبله بصدر رحب. وتمضى الأيام ويقرر سليمان أن يبنى مسجدا كبيرا. وأوعز إليه بعض الوشاة بهدم الكنيسة ليأخذ أعمدتها ورخامها لبناء المسجد، ونجد الشيخ الجليل رجاء بن حياة يعترض على هذا التصرف ويقدم اقتراحا آخر..بأن يكتب الى ملك الروم يسأله من أين..أتى بالرخام

---

[٢] د. على حسنى الخربوطلى: الاسلام واهل الذمة ص ١٣١.

[١] المصدر السابق ص ١٣٢.

الموجود فى الكـنيسة، فارشده ملك الروم إلى موضعه، وتطوع النصارى فى نشر الرخام ونقله وتم بناء المسجد بفضل حكمـة الشيـخ واستماع الحاكم للنصح تحقيقا لمبدأ التسامح الدينى وعدم ايقاع الظلم بأهل الذمة[1] .

٤- **عمر بن عبد العزيز:** تميز عهد عمر بن عبد العزيز - الذى عرف بالخليفة الخامس لورعه - بالتسامح مع أهل الذمة، فقـد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولـح أهـل الذمة عليه [2] ، كما نهى عمر بن العزيز أيضـا عاملـه علـى الكوفة من إتباع سياسة الحجاج التى تقضى بارجاع أهل الذمـة إلـى قراهم[3] .، كما كتب إليه أيضا أن يعطى اهل الذمة ما بقى من خـراج الكوفة، فيسدد ديونهم ويسـاعد مـن أراد الـزواج منهم، ثم ختـم رسالته بقوله: " قو أهل الذمة فاننـا لا نريدهـم لسنة ولا لسنين" [4] . بل جعل صدقات بنـى تغلـب - القبيلـة العربية المسيحية - فى فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال[5] .

لقـد اتسم عهد عمر بن عبد العزيز بفضل تقواه وورعه بالرخاء الاقتصادى نتيجة تخفيف الأعباء على المسلمين وأهـل الذمة معا.

---

[1] ابن فضل العمرى: مسالك الابطال فى ممالك الامصار ص ٢٥٤.

[2] الطبرى: جـ ٨، ص ١٤١.

[3] المصدر السابق جـ٨ ص ١٣٩.

[4] ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧.

[5] ابن الجوزى: مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٢.

أهل الذمة فى العصر العباسى (١٣٢/٦٥٦هـ - ٧٥٠/١٢٥٨م):

تمتع أهل الذمة بالتسامح والحرية فى العصر العباسى، وامتلأت بغداد بكثير من الأديرة أشهرها دير العذارى ودير درمايس ودير الروم شرقى بغداد. وأقام أهل الذمة من نصارى ويهود شعائرهم الدينية فى بغداد وخارجها فى أمن وسلام، بل كان بعض خلفاء العباسيين يحضرون مواكب وأعياد أهل الذمة[١] . وسنعرض لثلاث منهم لنستدل على كيفية تعاملهم مع أهل الذمة.

١- **هارون الرشيد:** لقد اتخذ الرشيد طبيبا مسيحيا هو جبرائيل بن يختيشوع، حتى أن الرشيد قال عنه كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب بها جبرائيل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه، وكذلك اتخذ الطبيب يوحنا بن ماسويه الذى خدم العباسيين منذ الرشيد حتى المتوكل وكان يجرى عليه الرشيد الكثير من العطايا ويصله بعشرين ألفا من الدراهم سنويا[٢].

وفى عهد الرشيد توطدت العلاقات الدولية بين الدول المسيحية وبينه، ونجده يتبادل الهدايا مع شارلمان - وقد بعث شارلمان وفدا مؤلفا من مسيحيين ويهود لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين، والحصول على علوم الشرق، وقد أدت هذه السفارة الى إرسال مفاتيح بيت

---

[١] د. حسن أبراهيم: تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٢٩١.

[٢] ترتون: اهل الذمة فى الاسلام: ص ١٦٥ ترجمة د. حسن حبشى.

المقدس إلى شارلمان مع هدية أخرى وهى الساعة المائية الدقاقة التى حسبها الفرنجة أنها آلة سحرية.

٢- **المأمون:** لقد كان المأمون لا يرضى لأحد من غير المسلمين أن يعتنق الإسلام إلا عن اقتناع تام وقبول حقيقى. وكان يهاجم من يعتنق الإسلام تزلفا ولغرض دنيوى، وكان يشبهه بالمنافق، مما كانت له الأثر الحسن فى إقبال كثير من أهل الذمة على الإسلام بحرية تامة.

ومما يؤكد على سماحة المأمون ما يذكره ترتون عنه، لقد كان فى زمنه أحد النصارى يدعى بكام من أثرياء بورة من أعمال مصر، فاذا كان يوم الجمعة لبس السواد - وهو شعار العباسيين - وتقلد السيف وامتطى جواده ومضى الى الجامع، وبين يديه رجاله، حتى اذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رسولا مسلما من قبله دخل المسجد وصلى بالناس[1].

٣- **المتوكل:** لم يكن متعصبا، بل استعان ببعض الموظفين المسيحيين مثل دليل بن يعقوب النصرانى، إلا أنه يؤخذ على المتوكل بأنه أول خليفة عباسى فرض على المسيحيين أزياء يرتدونها تختلف عن أزياء المسلمين. ويعلق على هذه السياسة صلاح الدين خودا بخش - مؤرخ هندى مسلم - بأن المتوكل

---

[1] المرجع السابق، ص ١٢٥.

هو الرجل الذى اعتدى على قبر الحسين وخالف أبـــرز تعـــاليم الإسلام، فهل يمكن أن نعتبره نموذجا لمعاملة المسلمين؟ فقد أدت أعماله الشيطانية الى اشتهاره بأنه رجل فاسد[1]

من هذا العرض لبعض الخلفاء العباسيين، نجد العصـــر العباسى تميز بالسماحة والاستعانة بأهل الذمـــة فـــى الأعمـــال والوظائف، وتمتعوا بحرية زائدة فى كافة المجـــالات ولا ســـيما الحرية الدينية. واما ما حدث من المتوكل فلا يعتبر قرينة ضـــد الإسلام، بل نموذج سئ خالف تعاليم الاسلام.

***

[1] صلاح الدين خدوابخش: الحضارة الاسلامية ص ١١٨. ترجمة د. على حسنى الخربوطلى.

أهل الذمة فى العصر العثمانى (٧١٦/١٣٣٧ هـ ١٢٩٩/١٩٢٠م):

عندما فتحت الدولة العثمانية كثيرا من الأقطار الأوربية التى يدين معظمها بالمسيحية، عاش المسيحيون مع العثمانيين المسلمين فى مجتمع واحد تظلهم سماء الحرية والتعاون، ويؤكد هذه الحقائق أرنولد فيقول: "حدثنا المؤرخ البيزنطى الذى روى قصة سقوط القسطنطينية كيف كان بايزيد الصارم نفسه، رحب الصدر كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه فى حرية تامة. وقد اشتهر مراد الثانى بعنايته فى تحقيق العدالة بإصلاحه للمفاسد التى سادت فى عهد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب فى غير هوادة أى موظف من موظفيه استبد بأى فرد من رعاياه، رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل، طائفة من الحكام الصالحين استطاعوا بفضل الإدارة الحازمة أن ينشروا الأمن والنظام فى كل المقاطعات، ووجدنا تنظيما رائعا فى الشئون المالية والمدينة والقضائية[١] .

ومن مظاهر الحب والوئام والمودة بين المسلمين والمسيحيين هو احتفال المسلمين بأعياد القديسين من النصارى، فقد كان يتوافد الكثير من المسلمين فى عيد القديس ايليا، وها هو مقاريوس بطريق انطاكية قد كتب فى وثيقة تاريخية يعترف فيها بالتسامح العثمانى جاء فيها"..أدام الله البقاء دولة الترك خالدة الى

---

[١] أرنولد: الدعوة الى الاسلام ص ١٧٣. ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين.

الأبد فهم يأخذون ما فرضوه من جزية، ولا شأن لهم بالأديـــان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودا أم سامرة".

بهذا العرض الذى قدمناه فى هذا البحث يتضح لنا كيف عامل المسلمون غير المسلمين عبر العصـــور فـــى الأمصـــار معاملة حسنـــة اتسمت بالسمو والتسامح والحفاظ على أرواحهم وأموالهم وحرية أديانهم عكس ما نراه مـــن مســـيحين العصـــر الحديث والمعاصر الذين يقترفون أبشع الجرائم فى حق الأقليات المسلمة فى بلادهم المسيحية أو الملحدة ويجبرونهم على دخول المسيحية عنـــوة، فضلا على إجبارهم تغيـــير أســـمائهم تحـــت صنوف من العذاب والضغوط التى تأباهـــا الإنســـانية جمعـــاء، ويندى لها الجبين، لعل الله يزيح هذه الغمة التى ألمـــت بجميـــع المسلمين سواء فى ديارهم أو فى غير ديارهم.

واستكمالا للبحث سنفرد الصفحات التالية للحديث عـــن أهل الذمة فى مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامى حتى يومنـــا هذا إن شاء الله.

مصر الإسلامية عبر عصورها المختلفة

باستقراء التاريخ نجد أولا أن مصر أيام الفراعنة تدين بعدة أديان وثنية كثيرة ومتباينة، ثم تعاقبت على مصر - ثانيا - الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، وهذا يعنى أن مصر الفرعونية عرفت اليهودية، فآمن بها بعض المصريين الوثنيين، ثم أتت إليها المسيحية فاعتنقها أيضا بعض المصريين سواء كانوا من الوثنيين أو من اليهود، وأخيرا جاء إليها الإسلام على يد عمرو بن العاص سنة ١٩ هـ - ٦٣٩م، وأصبحت مصر كلها تحت الحكم الإسلامي بفتح الإسكندرية عام ٢٢هـ - ٦٤٢م، فدخل معظم المصريين - من وثنيين ويهود ومسيحيين - الدين الجديد، وبذلك صارت مصر دولة إسلامية منذ ذلك التاريخ حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وهنا يتأكد لنا أن الكثرة من المسلمين والقلة من اليهود والمسيحيين نبتوا جميعا من أرومة واحدة وهى مصر فعاشوا كشعب مصرى واحد مؤمن بالأديان السماوية الثلاثة فى أعظم تعايش دينى، عرفته البشرية حتى يومنا هذا، لأن الإسلام جاء ليؤكد على حسن معاملة أهل الكتاب مع ضمان حرية العبادة لهم.

فضلا عن أن العرب كانوا يترددون على مصر كثيرا قبل الإسلام، فقد ذهب الى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان

الصحراء الشرقية، حتى أن المؤرخ اليونانى سترابون المتوفـــى نحو سنة ٢٥م. قال عن مدينة قفط فى الصعيد أنها مدينة نصف عربية[1] وبعد الإسلام ازدادت الصلة بين العرب المسلمين وبين أهل الكتاب بعد أن اعتنق معظم المصريين الإســـلام، كمـــا زاد الإرتباط بينهم نتيجة المصاهرة بين المصريين وبيـــن العــرب المسلمين.

إذن، ليس صحيحا ما يقوله بعض المضلليـــن عـــن أن فقراء المسيحيين هم الذين أسلموا فى مصر لعدم استطاعتهم دفع الجزية، دون أغنياء مصر الذين احتفظوا بمسيحيتهم لتمنكهم من دفع الجزية، وفى تفنيد هذا الزعم يقول ملن: " أن أهـــل مصـــر كانوا فى حالة فقر لا يرجى منه أمل، وأن الفلاحين لم يكونـــوا معتبرين إلا مجرد آلات لإنبات القمح، وما بقى من ثروة فيـــها، وإنما تركزت فى أيد قليلة، وتجلت نتيجة هـــذا الفقـــر فـــى أن السكان اصبحوا لا يكترثون بأى تغيير يطرأ على حكومتهم، ولا من يحكم الدولة أو الكنيسة اذا انحدروا الى مستوى بـــالغ مـــن الإذلال.[2].

---

(1) د. على حسنى الخربوطلى: الإسلام واهل الذمة ص ١٥٧.

(2) ج. ملن ذبائح مصر اثناء الحكم الرومانى ص ١١٧.

أما ابراهيم نصحى فيوضـــح: " ان المصريين كـانوا يكونون الطبقة السفلى، فى النظام الاجتماعى بينما الطبقات العليا كانت مكونة من الروم والإغريق[1] .

أما بتلر فيقول: " ان الحكام فى مصر أصبح لا هم لـهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطى وحاشيته، أن يكون لمذهبهم الملكانى اليد العليا بين أهل البلاد الذين يدينون بالمذهب اليعقوبى، فصار الحكم على أيديهم أى الحكام الرومـان أداة لا تؤدى إلا إلى الظلم ونشر الشقاء"[2] .

من هذه العجالة يستبين لنا من أقوال المؤرخين واقع حال أهل مصر المتمثل فى فقر مدقع، وفى اضطهاد مستمر لتمسكهم بالمذهب اليعقوبى ولمخالفتهم للمذهب الملكانى الذى يريد الرومان فرضه على أهل مصر فتوالت المحن عليهم وتعددت الضرائب الرومانية والتى تتزايد بصفة مستمرة حتى تم أخذها على الأشخاص والحيوانات والأشياء حتى دفن الموتى لم يسلم من دفع الضريبة. كما لا يفوتنا أن نذكر ظلم الفرس لأهل مصر منذ تم الاستيلاء عليها عام ٦١٨م حتى استعادها الرومان عام ٦٢٧م. فلم ينعم المصريون بشئ سوى الشقاء والعذاب سواء من الرومان أو الفرس.

---

[1] ابراهيم نصحى: المجمل فى تاريخ مصر ص ١٢٣.

[2] بتلر: فتح العرب لمصر ص ٣.

ولما جاء الإسلام انقلب الشقاء الى نعيم مقيم، ودخل المصريون الدين الجديد أفواجا طواعية ودون قهر أو إجبار، لأن الإسلام يحترم الأديان السماوية الأخرى ويتعايش مع أهلها فى حب وسلام وحرية تامة، وأيضا لعدالة الجزية المفروضة على أهل الذمة من أهل الكتاب، لأنها كانت تؤخذ من الرجال القادرين فقط.

ويمكن لنا بعد هذا أن نقدم شروط الجزية لأهل الذمة وهى:-

١- يدفع الجزية كل قادر من الرجال غير المسلمين. وكان مقدارها دينارين فى السنة أو ثمانية قروش ونصف شهريا.

٢- لا تدفع الجزية عن الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى وذوى العاهات والرهبان والكهان وأهل الصوامع والبيع.

٣- تسقط الجزية عن أهل الكتاب من القادرين من الرجال الذين ينضمون للخدمة العسكرية الإسلامية.

ويؤكد ارنولد هذا فيقول: "....من الواضح أن أية جماعات مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة - أى الجزية - إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى ولكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم"[1].

---

[1] ارنولد: الدعوة الى الاسلام: ص ٥٧، ص ٥٨.

مما سبق يدحض فرية من يدعون أن فقراء المسـيحيين اعتنقوا الإسلام لعدم قدرتهم على دفع الجزية، بينما الأغنياء من المسيحيين لم يدخلوا الإسلام لقدرتهم على دفع الجزية، لأن أهل الكتاب جميعا فى مصر كانوا معدمين ويمثلون أدنـى الطبقـات الاجتماعية سواء ايام حكم الفـرس أو الرومـان قبـل الفتـح الإسـلامى ولما جاء الإسلام بسماحته ظهرت طبقة الأغنياء من المسيحيين واليهود. وهذه هى الحقيقة التى تؤكدها شواهد التاريخ التى نعرضها بايجاز من خلال العصور الإسلامية المختلفة التى شهدتها مصر الإسلامية منذ عمرو بن العاص حتى يومنا هذا.

***

١ – مصر أيام الخلفاء :

وضع عمرو بن العاص – الذى فتح مصر أيام عمر بن الخطاب – سياسة أساسها المحبة لكسب الشعب المصرى، عاملا على تأليف القلوب بين العرب المسلمين وبين أهل الكتاب مـن المصريين، فقد استدعى بطريق الإسـكندرية بنيامين الذى نفـاه الروم ١٣ سنة فى الشام، واستقبله عند عودته إلى الإسـكندرية بكـل حفاوة وتقدير، كما منح عمرو بن العاص المصريين حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وحماية كنيستهم، وعاش المصريـون فى أمان طوال العصر الإسلامى، وكان وقتئذ يمثـل المجتمـع

المصرى زمن الفتح الإسلامى عدة عناصر مختلفة من مسيحيين وروم وعرب وأكراد وأحباش، فدخلوا معظمهم الإسلام، وما بقى منهم على دينهم تركوا يمارسون شعائرهم بحرية تامة. واحترم عمرو بن العاص نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم، فشمل الديانة المسيحية بحمايته وأذن للمسيحيين فى إنشاء الكنائس فى الفسطاط المدينة الإسلامية التى أسسها[1] فضلا عن أن كنيسة مار مرقص بالاسكندرية قد شيدت بين عامى ٣٩و ٥٦ هـ أى بدء إنشائها فى عصر الخلفاء الراشدين وأنتهت فى العصر الأموي.

ومن عدالة الإسلام نرى أن عمر بن الخطاب اقتص لابن أحد المسيحيين من ابن عمرو بن العاص الذى اعتدى عليه وأحضره وقال له: أضرب ابن الأكرمين وقال قولته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

وقد سار ولاة الخلفاء الراشدين على المنهج القرآنى والهدى النبوى مع أهل الذمة فى الأمصار بما حقق الحب والسلام والتعايش الدينى كما كفله الإسلام لهم.

٢- مصر أيام العصر الأموى:

عاش أهل الذمة فى العصر الأموى عيشة كلها أمن وأمان وحرية تامة فقد تولى مسيحيو مصر المناصب الكبرى

---

[1] جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٢٤٥.

والوظائف الإدارية والمالية مع حرصهم على بقائهم على دينهم رغم تعريب الدواوين فى عصر الخليفة مروان بن عبد الملك، فتعلم أهل الذمة اللغة العربية التى اصبحت لغة الدولة.

وكما أوضحنا سابقا أن كنيسة مار مرقص بالإسكندرية شيدت ما بين ٣٩هـ، ٥٦هـ كما شيد مسلمة بن مخلد عندما تولى مصر بين عامى ٤٧و ٦٨ هـ كنيسة فى الفسطاط فى حارة الروم. وأيضا سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة حلوان ببناء كنيسة فيها. ويذكر المقريزى/ "ان جميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خلاف"[١] . وهذا القول تأكيد لسماحة الاسلام.

٣- مصر أيام العصر العباسى:

وتميز العصر العباسى كذلك بسماحته مع أهل الذمة، فقد قام الواليان العباسيان الليثى بن سعد وعبد الله بن لهيفة ببناء الكنائس وقالا هو من عمارة البلاد " ويذكر آدم متز " أن عامة الكنائس فى مصر لم تبن إلا فى الإسلام زمن الصحابة التابعين[٢] .

وسمح العباسيون للمسيحيين بمزاولة جميع الأعمال والوظائف، كما ساهم المسيحيون فى حياة المسلمين الإجتماعية،

---

[١] المقريزى: الخطط جـ١ ص ٢٦٤.

[٢] آدم مترز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٧٣.

كما شارك المسلمون المسيحيين أعيادهم ويحتفلون معا بعيد وفاء النيل حيث يشترك الولاة والمسلمون والمسيحيون على السواء.

وفى عهد المأمون أعيد ترميم الديارات فى وادى النطرون، وقام بعض حجاب المأمون بإعادة بناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة، واستطاع مسيحيان الحصول على اذن يخول لهما بناء كنيسة على جبل المقطم، لأن الكنائس الموجودة بالقلعة كانت شديدة البعد، وفى هذه الفترة شيد بكام أحد أثرياء مصر عدة كنائس رائعة فى بلدته بورة[1] .

٤- مصر أيام العصر الطولونى :

شهدت مصر فى العصر الطولونى فترة ازدهار ورخاء، فقد عمل أحمد بن طولون على كسب المصريين من مسلمين ومسيحيين ويهود، وظهر مدافعا عن حقوق أهل الذمة، عاملا على إلغاء الضرائب الباهظة ويؤكد ساويرس مؤرخ البطاركة على أن الحكومة الإسلامية فى مصر لم تتدخل فى الشعائر الدينية المسيحية بل كان يشاركهم المسلمون كل احتفالاتهم حتى أن حكام مصر المسلمين لم يعارضوا فى تعيين أحد

---

[1] ترتون: اهل الذمة فى الاسلام ص ٥١.

البطاركة بعد أن تم انتخابه بمعرفة الأساقفة، وأن الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور لأنهم ابناء وطن واحد[1]. كما نرى أحمد بن طولون قد عهد الى معهد مسيحى اسمه سعيد ابن كاتب الفرغانى ببناء مسجده الشهير، كما أقام أول مستشفى عامة تعالج المرضى من جميع الأديان والأجناس بالمجان[2].

٥- مصر أيام العصر الاخشيدى :

كان المجتمع المصرى متماسكا ومتعاونا فى العصر الأخشيدى حيث عاش المسلمون والمسيحيون واليهود جنبا إلى جنب، وتمتع الذميون بالحرية الدينية وكان الحكام يشاركونهم كل احتفالاتهم، كما قاموا بإصلاح الكنائس، ولم يكن فى مصر أحياء خاصة لأهل الذمة، بل كانوا يعيشون جميعهم فى حب وسلام[3].

ولم يلتزم الحكام المسلمون بأن يدفع الذميون دينارين كجزية سنوية، بل كثيرا ما نقصت هذه الجزية عن هذا القدر

---

[1] د. سيدة كاشف: احمد بن طولون ص ٣٣.

[2] المقريزى: الخطط جـ٤ ص ٤٠٥.

[3] د. سيدة كاشف: مصر فى عهد الاخشيديين ص ٢١٤.

حسب الظروف الإقتصادية، وكانت الحكومة فى مصر فى أوائل القرن الهجرى الثالث تكتفى بأخذ نصف دينار فقط.

٦- مصر أيام العصر الفاطمى :

كان العصر الفاطمى من أزهى العصور التى شهدها أهل الذمة فى مصر، فقد عامل الفاطميون المسيحيين واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية تجلى فيها المحاباة، كما قلدوهم ارقى المناصب وأعلاها، فقد شغلوا معظم الوظائف المالية والإدارية فى الدولة والبعض منهم تقلد الوزارات أيضا، كما تمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى يوضحه عدد الكنائس التى بنيت فى العصر الفاطمى[١] .

ولما كانت الدولة الفاطمية تعتنق المذهب الشيعى الذى يخالف جمهرة المسلمين السنيين، فأصبح لأهل الذمة الصدارة فى التعامل مع الحكام الفاطميين ويؤكد أوليرى هذا بقوله أن استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب الادارية والمهنية هو عرف سائد فى البلاد الإسلامية، وان بالغ الفاطميون فى استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل[٢] .

---

[١] د. حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٤.

[٢] د. على حسن الخربوطلى: الاسلام واهل الذمة ص ١٧٤.

ورغم ما تميز به العصر الفاطمى من تسامح تام إلا أن أحد حكامه المعروف باسم " الحاكم بأمر الله " اتبع سياسة اتسمت بالشذوذ والجنون أو ازدواج الشخصية فقد مر أهل الذمة فى عهده بفترتين متميزتين، ففى الفترة الاولى التى تبدأ من ٣٩٠هـ، الحق الحاكم بأمر الله بأهل الذمة كل ألوان الاضطهاد والتى تعداه الى المسلمين أيضا الذين لا يعتنقون المذهب الشيعى، كما أغضبه استئثار أهل الذمة بالمناصب وازدياد ثراوتهم وهم المحرومون من هذا الثراء أيام حكم الرومان والفرس مما جعل يضيق عليهم الخناق وقد الزمهم بوضع شارة هم واليهود تميزهم عن غيرهم، كما أقدم على هدم بعض الكنائس، والغريب فى الأمر أن الحاكم بأمر الله أثناء اضطهاده لأهل الذمة، كان وزيره منصور بن عبدون النصرانى، ويعتبر هذا الوزير المسيحى مسئولا عن تصرفات الحاكم بأمر الله.

أما الفترة الثانية التى تبدأ من ٤٨١هـ فقد اتسمت بالتسامح، ولكن ثمة حقيقة أخرى أن الرأى العام فى مصر كان ساخطا على الذميين لا باعتبارهم مخالفين فى الدين للمسلمين الذين يمثلون غالبية المصريين، ولكن باعتبارهم موظفين فى الحكومة منوطين بجمع الضرائب بقسوة من الأهالى مما أثار غضبهم وسخطهم.

من هذا يتبين أن الإسلام برئ مما ينسب اليه من بعض تصرفات حكامه، ولذا ينبغى أن نفـرق بيـن مبـادئ الإسـلام السمحة وبين سلوك بعض الحكام الذين يخرجون على مبادئه.

٧- مصر أيام العصر الأيوبى :

كان أهل الذمة أسعد حالا فى العصر الأيوبى بما كـانوا يتمتعون به من تسامح في العصر الفاطمي. ولا ننسي مواقـف الناصر صلاح الدين مع أهل الكتاب، وكان أحـد قـواده مـن مسيحى مصر فضلا عن تعامله مع أعدائه من مسيحى الغـرب الذين اتخذوا الصليب شعارا لمطامعهم وتوسعاتهم الاسـتعمارية ولكن رد الله كيدهم إلى نحورهم بفضل تعاون مسلمى ومسيحى الشرق وخاصة فى مصر.

٨- مصر أيام العصر المملوكى :

كان أهل الذمة أسوا حالا فى بعـض فـترات العصـر المملوكى، ولكن اقتصرت مظاهر المضايقات في إرغام بعـض سلاطين المماليك لأهل الذمة على ارتداء أزياء معينة تمـيزهم عـن المسلمين، ولكن كثيرا من السلاطين المماليك أبدوا تسامحا ومعاملة طيبة لأهل الذمة، إلا أن هولاء المماليك قد عاشوا فـى مصر منعزلين عزلة تامة، وغير مختلطين بـالمصريين سـواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو غيرهم، مما أوجدت هذه العزلـة

فجوة كبيرة جدا بين الحكام المماليك وبين المحكومين من المصريين.

٩- مصر الحاضر والمستقبل :

لقد عاش المسلمون مع اخوتهم المسيجيين في محبة وسلام منذ دخل الإسلام مصر رغم بعض الفترات العصيبة التى تظهر فيها الفتن التى يشعلها الاستعمار وأذنابه، ولكن بفضل رعاية الله ويقظة المصريين، يتم وأد هذه الفتن في مهدها، وتصبح رمادا تذروه الرياح.

ونتيجة تقدم الفكر السياسى فى الإسلام يدفع جميع المواطنين مسلمين ومسيحيين ويهود الضريبة سواء بسواء حيث حلت الضريبة محل الجزية بالنسبة لأهل الكتاب من مسيحيين ويهود فضلا عن الزكاة بأنواعها يدفعها المسلمون طبقا لتعاليم الاسلام تحقيقا للتكافل الإجتماعى بين أهل مصر.

فقد صار المصريون جميعهم سواسية أمام القانون الإسلامى أو الوضعى فى مصر الإسلامية التى انصهرت في بوتقتها جميع الأديان فصارت الغالبية مسلمة، والأقلية مسيحية ويهودية يستظلون بكل الحريات ويشعرون بالإنتماء إلى مصرهم العزيزة فى ظل المواطنة المصرية الإسلامية.

وليس أدل على سماحة الحكام المسلمين فى مصر في وقتنا الحاضر، نجدهم يتركون أوقاف المسيحيين في أيدى

المسيحيين ممثلة فى البطريكية المرقسية التى تقوم على الصرف على الكنائس ورجال الاكليروس المسيحى فضلا عن قبولها الاعانات والهبات من الحكومة والأفراد المسلمين الذين يساهمون فى بناء الكنائس وكذلك اخوتهم المسحيين يشاركون فى بناء المساجد، كما أن الكنيسة المصرية تنتخب رئيسها من بين رجال الدين المسيحى دون تدخل من الدولة إلا اعتمادها فقط لهذه النتيجة.

ان تنظيم بناء الكنائس فى مصر لايسئ إلى أهل الذمة، حيث توجد هذه الكنائس فى المناطق والمدن التى يكثر بها المسيحيون البالغ عددهم تقريبا ثلاثة ملايين نسمة أو يزيد قليلاً،(١) كما أنهم لا يعيشون فى عزلة تامة واحياء مغلقة عليهم بل العكس فانهم يعيشون جنبا الى جنب المسلمين متجاورين متحابين وليس أدل على ذلك سوى بناء المسجد بجوار الكنيسة، وتكرار هذه الصورة الرائعة مما يؤكد أن شعب مصر واحد.

وما نراه فى مصر لا يحدث فى الدولة المسيحية التى تتخذ شعار العلمانية تغطية لعدوانها على الإسلام ولا تسمح ببناء مسجد واحد فيها. وإذا سمح بذلك نجد الإعلام الغربى ومن يتبعونه من أذنابه فى مصر يتكلمون عن عظمة هذه البلاد ناسين ان معظم الكنائس المسيخية فى مصر قد شيدت واستحدثت فى العصر الإسلامي فقط بشهادة المؤرخين.

---

(١) تعداد المصريين المسيحيين لا يمثل الحقيقة لأن أكثر من جهة تناولته ونأمن من الجهاز المركزى للاحصاء ان يوضح هذه الحقية

أما بالنسبة لبناء المساجد والصرف عليها فان وزارة الأوقاف تقوم بالصرف عليها من أموال الأوقاف الخاصة بالمسلمين التى آلت إليها. ومن ثم أصبحت هذه المساجد تحت اشرافها ورعايتها والعمل على زيادتها وترميم وإصلاح القديم منها، فضلا عن بناء المساجد بتبرعات المسلمين.

أما مسألة ختم أهل الذمة فى العصر الإسلامي، لم تعتبر إهانة لهم، لأن هذا النظام كان معمولا به أيام الفرس والرومان لمعرفة من أدى الضريبة من عدمها، وخاصة أن الطباعة لم تكن قد ظهرت. ونجد فى عصرنا الحديث والمعاصر فى القرن العشرين اتباع هذه السياسة فى الانتخابات الافريقية وآسيا يقومون بختم أيدى الناخبين حتى لا يعطى صوته مرتين. وهذا هو المؤرخ ترتون يدافع عن المسلمين فى هذه القضية فيقول: ومن الحق ألا نحمل العرب وزر هذا العيب اذ لم يكونوا فيه البادئين والمبتدعين، بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم"[1]. وكذلك فعل الأشوريين مع عبيدهم وأيضا اليهود مع عبيدهم.

أما المسألة الثانية فهى الخاصة بملابس اهل الذمة، فان المسلمين الأوائل ومن جاءوا بعدهم لم يتدخلوا فى تحديد الملابس لأهل الذمة، ولا يعتبر بعض الحكام المسلمين الذين لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة دليلا ضد الإسلام، لأن هناك

---

[1] ترتون: أهل الذمة فى الاسلام ص ١٢٢.

فرق بين وجود القانون ومدى تطبيق هذا القانون، فقــد انتــهج معظم الحكام المسلمين سياسة التسامح فى كل شئ، ومانسب الى سيدنا عمر بن الخطاب بأنه اشترط على أهــل الذمــة شروطــا عديدة منها ارتداء زى معين فهو مخالف للواقــع، لأن التــاريخ يؤكد سماحة هذا الرجل الذى يسمي بالفاروق إنما الحقيقة تمثلت في وثيقة طلب النصارى له ووافقهم عليها نقتبس منها: " أنكم لما قدمتم علينا سألنكم فى لبس القلنسوة وليست العمامة، وأن تشــد الزنانير على أوساطنا"[1] وهكذا كان طلب النصارى من عمر بن الخطاب، ومهما كان الرأى، فان كانت هذه الأوامر التى تحــدد أنواع وأشكال الملابس حقيقية، فانها لم توضع موضع التنفيذ فى معظم العصور التاريخية الإسلامية، وحاضرنا خير شــاهد. أما اتخــاذ رجال الدين المسيحى اللون الاسود فإنه يرجع إلى عصر الشهداء الذى قتلهم وغدر بهم اقلديوناس الرومانى ومن هنا جاء اللون الأسود حدادا وتذكيرا لما حدث للمسيحيين مــن مآس راح ضحيتها آلاف الشهداء الذى اتخذ تاريخــه تقــويما لمســيحى مصر، وليس صحيحا ما يشاع بــأن رجــال الديــن المســيحى يتشحون بالسواد لمقدم الفتح الإسلامى، لأن الفتح الاســـــلامى جاء منقذا لهم بسماحته وإطلاقه حرية العقائد للجميع دون إكراه.

إن مصر الحاضر والمستقبل - كما كانت فى ماضيها - مقبرة لغزاتها ولإيمان شعبها العظيم بالله والوطن.

---

[1] ترتون: أهل الذمة فى الاسلام: ص١، ص ٢.

خاتمة البحث

لقد صهر الإسلام كل سكان مصر جميعهم فـــى بوتقــة واحدة بعد أن أسلم معظمهم وعاش الباقى من أهل الذمـــة وهــم أهل الكتاب من مسيحيين ويهود فى عيشـــة راضيـــة تجمعـــهم المحبة والمودة، وصارت لغتهم لغة واحدة هى اللغـــة العربيـــة، فضلا عن وشائج القربى بين المصريين وبين العرب عن طريق القوافل أيام الجاهلية ثم فى العهد الإسلامي وزادت هذه الروابط. ولا ننسى هاجر المصرية زوجة سيدنا إبراهيم أبو الأنبيـــاء وأم سيدنا إسماعيل الذى جاء من صلبه سيدنا محمد صلى الله عليـــه وسلم الذى تزوج السيدة مارية المصرية، كما تزوج شاعر النبى حسان بن ثابت أختها سيرين.

هذه الروابط الأبدية والأواصر العميقة الجذور الضاربة فى الزمن تربطنا جميعا بسيدنا إبراهيم الذى ينتسب إليه جميـــع الأنبياء ومنهم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وهم أصحاب الرسالات السماوية الثلاث التى عمرت مصر فجـــعلتها قلعة الأديان حتى قال المسيح عليه السلام مبارك شعب مصر.

إن تبريك المسيح لشعب مصر يجعلنا أن نقف قليلا أمام كلمة قبط فإنها تعنى السكان وليس تعنى المســيحيين فقــط دون غيرهم، حيث كان يوجد فى مصر قبل الفتح الإسلامي الكثير من الروم والأحباش والأكراد والعرب إلى جوارهم, ومن ثم ينبغـــى القـــول من الآن فصاعدا شعب مصر لأنه شعب واحد بدلا من أن نردد الشعب القبطى، شعب الكنيسة، وبالتالى يقابله الشعـــب

المسلم. فالشعب هو الشعب المصرى الواحد بمسلميه ومسيحييه ويهوده إن وجدوا. والعمل أيضاً على عدم ترديد شعار الوحـــدة الوطنية، لأن هذا يوحـــى بوجود انقسام فى شعب مصر، كمـــا يوحى بأنه توجد فتنة طائفية، فليست الحـــوادث الفرديـــة التـــى تحـــدث بين الشقيقين تصل إلى هذه الفتنة التى يحاول الاستعمار العمل على زيادة اشتعالها، وأهالى مصر يقظون جميعا لما يحاك ضدهم من هذه الفتن ان وجدت فالله بفضله يحيلـــها الـــى رمـــاد لأن مصر بلد الأنبياء والرسل والصديقين والصديقات.

فمصر بأغلبيتها المسلمة، وأقليتها من أهل الكتاب مـــن يهود ومسيحيين ــ شعب واحد فى كل الأوقات وكـــل الأزمـــان شعب واحد فى مصر الإسلامية. ولا ننسى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "أوصيكم خيراً بأهل مصر، فإن لى فيها نســـباً وصهرا" ويقول أيضاً صلى الله عليه وسلم "خير أجنـــاد الأرض هم جند مصر، وأنهم فى رباط إلى يوم الدين".

ومن خلال هذا البحث يتأكد بأن معاملة المسلمين لغـــير المسلمين كانت ولا تزال المعاملة الحسنة والجوار الطيب تحقيقاً لمبادئ الإسلام السامية التى تدعو إلـــى الحـــب والآخـــاء بيـــن الجميع، كما يتأكد لنا أن مصر الكنانة خير مثال للشعب الواحـــد المنتمى إلى مصر الإسلامية. عكس ما نراه من حوادث مؤسفة للأقليات المسلمة فى البلاد المســـيحية التـــى لا تدخـــر وســـعاً لتشريدهم أو أبادتهم بينما الإسلام فى جميع أقطـــاره بســـماحته يفســـح للأقليات التى تعيش فى جنباته بكـــل الحريـــات تظلـــها الأخوة الإنسانية التى تجمعها الأديان السماوية الثلاث.

أهم المراجع

أولا – القرآن الكريم
السنة النبوية المطهرة

******

ثانيا –
١- ابراهيم نصحى: المجمل فى تاريخ مصر
٢- ابن الفضل العمرى: مسالك الأبطال فى ممالك الأمصار.
٣- ابن القيم الجوزية: (شمس الدين محمد بن ابن بكر) احكام أهل الذمة
٤- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة.
٥- ابن سعد : (محمد) الطبقات الكبرى.
٦- ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز.
٧- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق.
ابو محمد بن عبد الملك بن هاشم بن ايوب العافرى (السيرة).
٨- ابو يوسف: (يعقوب بن ابراهيم) الخراج.
٩- آدم متز: الحضارة الأسلامية.
١٠- ارنولد (توماس) الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم وآخرين.
١١- الاصفهانى: (ابو الفرج على بن محمد حسين): الاغانى.
١٢- البلاذرى: (احمد بن يحيى بن جابر) انساب الاشراف.
١٣- الطبرى: (ابو جعفر بن جرير) تاريخ الامم والممالك.

١٤- المقريزى: (تقى الدين احمد بن على) كتابة النقود القديمة الاسلامية.
١٥- المقريزى: (تقى الدين احمد بن على) الخطط والآثار.
١٦- اليعقوبى: (احمد بن يعقوب بن جعفر) تاريخ اليعقوبى.
١٧- بتلر: فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد ابو حديد.
١٨- ترتون: (أ.س) أهل الذمة فى الإسلام ترجمة د. حسن حبشى.
١٩- د. حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام.
٢٠- د. حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية.
٢١- جوستاف لوبون: حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر.
٢٢- د. سيدة كاشف: احمد بن طولون.
٢٣- د. سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين.
٢٤- صلاح الدين خودا بخش: الحضارة الاسلامية ترجمة د. على حسنى الخربوطلى.
٢٥ - د. على حسنى الخربوطلى: الاسلام واهل الذمة.
٢٦- على منصور: شريعة الله وشريعة الانسان.
٢٧- محمد حميد الله الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة.
٢٨- ملن (ح): تاريخ مصر اثناء الحكم الرومانى.
٢٩- د. محمد ممدوح العربى: دولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة.

المؤلف فى سطور

- من مواليد الإسكندرية.
- دكتوراه فى الآداب "فلسفة السياسة".
بمرتبة الشرف الأولى
- رئيس تحرير مجلة الشاطئ.
- نائب رئيس مجلس إدارة هيئة الفنــون والآداب والعلــوم الاجتماعيــة بالإسكندرية.
- مدير إدارة الإحصاء بهيئة المواصلات السلكية واللاسلكية بالإسكندرية (س).
- الأستاذ المنتدب بقسم المسرح بآداب اسكندرية (س).
- استاذ الفلسفة بكلية التربية بجامعة الفاتح طرابلس ، ليبيا(س) .
- عضو اتحاد الكتاب منذ عام ١٩٧٨.
- عضو نقابة التجاريين.
- عضو جمعية المسرح المصرى
- عضو جمعية كتابى وفنانى واعلامى الاسكندرية
- كاتب إذاعى ومحاضر بالهيئات الرسمية والأهلية.
- الناقد والمحرر الأدبى بجريدتى البصير والسفير بالإسكندرية.

مؤلفاتــــــه :

- دولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ــ طــ هيئة الكتاب عام ١٩٨٨م.
- الأخلاق والسياسة فى الفكر الإسلامى والليبرالى والماركسى ــ طــــ هيئة الكتاب عام ١٩٩٢.

- أهل الذمة عبر العصور فى الأمصار الإسلامية ـ طـ. دار الوفاء بالإسكندرية.
- الفعل الإنسانى بين الفكر المعتزلى والوجودى ـ دار الفتح بالإسكندرية.
- الأخلاق والسياسة تأليف بنديتوكروتشى ـ ترجمة وتقديم د. محمد ممدوح العربى ـ طـ. دار الفتح.
- آخر زمن مجموعة قصصية ـ طـ دار الوفاء.
- اللعبة مجموعة قصصية ـ طـ دار الوفاء.
- البصاصين & وسنعود يوما مسرحيتان تحت الطبع.(نفذت الطبعة الأولى عام ١٩٩٣ عن دار السفير)
- الحمير نطقت مسرحية تحت الطبع
- خواطرى مجموعة مقالات ودراسات تحت الطبع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصويب الأخطاء في "أهل الذمة.."

م	الخطأ	الصواب
	أولا: في المحتويات	
٤	معاورة	معاوية
٤	٢- مصر الإسلامية عبر عصورها المختلفة	٢- مصر الإسلامية عبر عصورها المختلفة ١- مصر أيام الخلفاء ٢- مصر أيام العصر الأموى ٣- مصر أيام العصر العباسي ٤- مصر أيام العصر الطولوني ٥- مصر أيام الأخشيدى ٦- مصر أيام العصر الفاطمي ٧- مصر أيام العصر الأيوبي ٨- مصر أيام العصر المملوكي ٩- مصر أيام العصر العثماني ١٠- مصر الحاضر والمستقبل
٧	مكررة من بداية الصفحة إلى...أجناد مصر،	يحذف هذا التكرار

٧	ناقصة هذه الفقره ←———	فى نهاية الصفحة تسكتمل هذه الفقرة بعد كلمة الزنوج الذين يصطلون بنار العنصرية الامريكية من الرجل الأبيض الذى هو نتاج طبيعى لقراصنة وفكر أوربا الاستعمارى.
٨	ناقصة هذه الفقرة ←———	<u>تكتب فى أول الصفحة رقم ٨.</u> وفى هذه العمالة، أعتقد أنه من المفيد، أن اشير إلى بعض كتابنا الذين كانوا لهم التأثير الكبير فى جيلهم وفى الأجيال المتعاقبة، لأنهم لا يزالون يعيشون أسارى هذه الأفكار الخاطئة كأنها مسلمات و بديهيات، بينما نجد فريقا أخر منهم يتسم بالشجاعة والموضوعية والرجوع إلى الحق معترفين بفساد منطقهم

		بدحض، (ثم تكملة بقية الصفحة بعدها)
٤٠	يدخها	دخلها
٤٣	مكررة الفقرتين من أول صفحة..إلى الجزية	تحذف الفقرتان من أول الصفحة إلى الجزية
٤٣	تستكمل هذه ← كالآتى	فى نهاية الصفحة بعد رضى الله عنهما من تسامح وعدل وأمن ماداموا يؤدون الجزية والخراج، وسمح لهم بالزراعة والتجارة والصناعه والطب. وكان الوليد بن عقبة الذى والاه عثمان على العراق يسمح بدخول النصارى المساجد ويجرى عليهم كل شهر وضمن لهم أزراقهم شهريا(٢)
٤٣	يصح الهامش كالاتى	(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق

		جـــ١ ص ١٧٨. (٢) البلاذرى: انساب الاشراف
٤٤	ناقصة ابتداء من: ٤- الخليفة على بن أبى طالب: تمتع	جـــ٥ ص٣١. تكتب من أول الصفحة كالآتى ٤- الخليفة على بن ابى طالب: تمتع أهل الذمـــة فـــى عـــهده بالمعاملة الحســـنة والتســـامح التام، فأعطى النصـــارى مـــن العطـــاء وســـاواهم بـــالعرب والموالى(١)، وكـــان يوصـــى عماله فى كل مكان بأهل الذمة وأمر عامله بحفر نـــهر لأهـــل الذمه يروون أرضـــهم ومثـــال يدل علـــى عظمة على بن أبى طالـــب وتســـامحه وعدالتـــه التامة هو قبوله حكم شرحبيـــل قاضى البصرة الـــذى أنصـــف اليهودى الذى جاء شاكيا مـــن على، مما أدى إلـــى إســـلامه وقتاله فى صفوف على كرم الله

٤٤		وجه(٢). ١- اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى جـ٢ س ١٥٩. ٢- الاصفهاني: الاغانى جـ١٦ ص ٣٦. ٣- المقريزى: كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٣٥.
٦٤	ناقصة رقم ٩	٩- مصر أيام العصر العثمانى منذ جاء الفتح العثمالنى بعد الحملة الفرنسية عام ١٥١٧م - ١٨٠٥.م تختلف معاملته مع مسيحيى مصر بل مسيحيى البلاد الأخرى سواء فى العالم العربى أو فى العالم الغربى. ولكن صدر فى عهده الفرمان العالى للاصلاحات فى فبراير ١٨٥٦ الذى أصدره السلطان عبد المجيد ليقف أمام سطوة القوى الأوروبية الصاعدة انذاك والتى بدأت تتغلل فى جسم

٦٤		الدولة العثمانية بدعوى حماية الطوائف المسيحية. وقد عرف هذا الفرمان بالخط الهمايوني ويتلخص فى النقاط التاليى: ١- اعتماد كافة الحقوق التى نصت عليها قوانين سابقة بالمسيحيين وأهمها حكم أنفسهم فى سائر الأحوال الشخصية لارتباطها بالعقيدة الدينية. ٢- المساواة فى الوظائف بين المسيحيين والمسلمين. ٣- لا توضع أية عراقيل أمام اى انسان يود القيام بفرائض ديانته، ولا يلقى من جزاء، ذلك جورا أو اذيه، ولا يجبر أحد على ترك دينه. ٤- يقوم الأب البطريرك بتقديم طلبات بناء الكنائس للباب العالى وتصدر الترخيصات

٦٤		اللازمة لبنائها. ٥- وجوب الخدمة العسكرية على المسيحى مثلما واجبه على المسلم. ٦- تشكيل مجالس ملية للطوائف المختلفة مكونة من رجال دين وعلمانيين لإدارة المصالح الخاصة بشئونهم الداخلية والفصل فى أحكامهم الشخصية. ٧- تزال كلية المحررات الديوانية جميع التعبيرات والألفاظ التى تتضمن الاساءة إلى فئة من الناس بسبب المذهب أو اللسان أو الجنسية، ويمنع قانونا استعمال كل نوع تعريف وتوصيف يهين أو يمس العقائد الدينية للطوائف المختلفة (الحالة الدينية فى مصر العدد – الطبعة الثالثة

٦٤		عام ١٩٩٥م). هذا الفرمان الذى يثار حوله بين الحين والآخر بعض المشاكل نراه يضم قواعد تنظيمية لشئون الطوائف في إطار سياسة الدولة الاسلامية. ونعتقد لمنع الفتن والمؤمرات أن تبنى الكنائس وفقاً لتعداد السكان المسيحيين في مصر، ورغم الدول الاوروبية التى تحيك المؤامرات ضد عدم بناء الكنائس المصرية بها تبنى على أسس أيضا. وما العيب في أنه تقوم الدولة بتنظيم بناء الكنائس وفقا لتعداد سكان كل حى بدلا من بناء عده كنائس في حى واحد أكثر من اللازم رغم أن سكانه لا يمثلون الكثرة التى تتطلب هذه الكنائس..فلابد من تنظيم حتى نخرس السنه الاستعمار.
٦٤	رقم ٩ مصر الحاضر والمستقبل	تصحيح رقم ١٠ - مصر الحاضر و المستقبل